

# رحلات ابن عطوط

محمود السعدني



مركز الأهرام  
للترجمة والنشر

# المحتويات

- وعلى كل لون ..... ٥
- يا عينى على طنجة ! ..... ١٥
- نهاية التيوس ! ..... ٢٥
- وأبو زيد قال لدياب ..... ٣٥
- الأرض الخراب ..... ٤٢
- والكفاح دوار ! ..... ٥٠
- بتوع الفريكيكو ! ..... ٥٩
- وإن طال السفر ..... ٦٥

- آلة الزمن ..... ٧٣
- الشيخ لعبوط ..... ٨٠
- الأرض بتتكلم .. هندی ! ..... ٨٧
- فجاءة الذى ... فجأة ! ..... ٩٣
- أك سورى إكوانى ! ..... ١٠٠
- والداخل مفقود ! ..... ١٠٧
- على أبواب بابل ! ..... ١١٤
- أوطان الآخرين ! ..... ١٢٣

# وعلى كل (و ت)

رحمة الله وبركاته على عمنا القديم ابن بطوطة ، كان هو الآخر صحفيا ، وإن كان ليس عضواً بنقابة الصحفيين فلم يكن في زمانه صحافة ولا يحزنون ، كان الشاعر هو الصحفي ، وكانت غاية الشعر هي مدح الملوك والخلفاء والولاة وعساكر المرور ! .

وكان الشاعر الذي يرفع قصيدة جيدة من نوع ( وسمعا بالعشارى اذا ذهبنا ، بأرض الله فى كل زمان ) يحصل على مكافأة تساوى الهبة التى هبها توفيق عبد الحى من بيع اللحوم الفاسدة والكتاكيت الميتة ..

ولكن عمنا ابن بطوطة لسوء حظه لم يكن شاعرا ، كان شديد الملاحظة ، عظيم الصياغة ، شديد الاهتمام بالناس وبالحياة ، شديد الشوق للبلاد والعباد ، وكان متوقد الذكاء وصاحب مفهومية يفهم الأشياء وهى طائفة وأحيانا قبل أن تطير ! .

ولكن اسم ابن بطوطة كان عيبه ، فبطوطة من البط ، والبط طائر لا يطير ، شديد الكسل ، شديد الوحش ، غاية رحلته لفة ، فى بحيرة ، أو نزهة فى بركة أو بلبطة فى ترعة - حسب الأحوال والتساهل ..

والست والدتنا - الله يرحمها - كانت تصرخ دائما فى وجهى : « والنبي تقعد كده وتنبط » .

ورواد قهوة المعلم حسن عوف فى الجزيرة يقولون من باب الحكمة : « مش فلان اتبطط » ، يعنى انكسر ، يعنى ضاع فى الكازوزة .. يعنى اتخرب بيته ياولداه !! .

المهم أن ابن بطوطة لم يكن اسما على مسمى ؛ ولذلك أنا رأيت بعد كل هذا العمر الطويل أن أصحح هذا الخطأ الرهيب ، وأطلقت على نفسى لقب ابن عطوطة على وزن ابن بطوطة باعتبار أن كلا منا له رحلات وجولات وسفريات على اختلاف المكان والزمان ..

أنا إذن ابن عطوطة ، وهو من العط . والانسان يعط حتى يزق ، وأحيانا يعط حتى يغمى عليه ، وبعض الناس تعط وتعط حتى تضيع ..

وزعيم العطاطين فى العالم العربى كان عمنا زكريا الحجاوى ، وكان يعط من شارع إلى شارع ومن قهوة بلدى إلى قهوة أفرنجى ، ومن قهوة بهوات إلى قهوة مجاذيب ، ومن كفر إلى نجع ، إلى ضيعة ، إلى بلد ، إلى شاطيء ، إلى رصيف ، ثم انتهى به المطاف إلى أن ذهب وعط فى الدوحة وداح هناك السبع دوحات .. ومات غريبا .. ياكبدى !! .

وتولى إمارة العط من بعده عمنا عبد الرحمن الخميسى وهو رجل عطاط من قبائل عطيط ، وهى قبائل احترفت العط فى أرجاء الامبراطورية أيام مجد العرب والعروبة والسحابة التى كانت تمطر فى كل مكان فيعوط خراجها إلى خزان الخليفة . وفى النهاية استقر عمنا عبد الرحمن الخميسى فى موسكو .. ومات غريبا هو الآخر .. وامصيينناه !! .

وهناك سبب آخر جعلنى أطلق على نفسى لقب ابن عطوطة وهو أن الست والدتنا - الله يرحمها - كانت تقول : « ماتهمد بقى يابنى وكفاية عط » . كما أن صديقى فتحى بحيرى كان يزفر زفرات ساخنة ويقول : « لو ربنا يتوب علينا بقى من العط » . وكان فتحى ضجرا من كثرة الانتقال من مهنة إلى مهنة ومن سبوبة إلى سبوبة ، ومن شغلانة إلى أخرى ، وكان يرجو لو يستقر مرة واحدة فى حياته ويستريح ، وقد استخدم كلمة العط هنا فى معنى الدوخة التى .. ( إلهى مايحكم بها على عدو أو حبيب ) ! .

هذه إذن هى المصادر التاريخية لكلمة العط ولكنها كلها مصادر غير رسمية ، وإن كان بعضها مدونا فى كتب سيد أبو دراع ( وهو فنان شعبى غير محمد أبو دراع ) ، وكانت له أغنية مشهورة منذ نصف قرن من الزمان :

ياللى انكتب عليك العط  
اصبر دا الرب مش ناسى

أما المصادر الرسمية لكلمة العط ، فقد أحجمت عن الخوض فيها خوفا من وجع الدماغ ، ولكنى توكلت على الله وفتحت قاموس ابن مهروش الزلبنانى ( وهو عالم حجة فى اللغة والنحو ) ، ويقول ابن مهروش فى باب عط : « العط من العطوط ، وتجمع عطاطيط ، ويقال عط فلان أى ترنح وكاد يميل ، ويقال شجرة عطاطة أى رقيقة الأغصان هشّة الأوراق تنن تحت نسمات الريح وتميل » .

يقول الشاعر الجاهلى :

عططت لما ابتلانى الدهر من نكد  
ورحت أمشى على درب من الهرد

أى أنه من شدة الهم والغم كان يمشى فيميل ، كأنه يسير فى شارع من شوارع

الجيزة التي امتلأت بالمطبات والحفر بالرغم من تصريح المحافظ بأن كل شوارع الجيزة كالشعر الحرير على العينين يهتف ويرجع يطير ! .

وفى لسان العرب لعننا ابن منظور : « العط هو غابوق البن من الخمر ، وسمى عط لأن من شربه مال وترنح » .

ويقول الشاعر الجاهلي حمزة الجيزاوى :

عططنا فدخنا فاسقنى من عطك المدهون

وهو بيت من قصيدة يعتبرها البعض من المعلقة لأنها وجدت معلقة على شباك مديرية الأمن بمحافظة الشرقية . وقيل إنه كتبها بعد علة محترمة أكلها الشاعر حمزة الجيزاوى بعد قضية سرقة بالإكراه ارتكبها الشاعر واستخدم فيها مطواة قرن غزال .

ولكن الدكتور لويس عوض أكد عندما سألته أن كلمة عط أصلها لاتينى وهى فى الأصل أَلط : ALT وحرفها العامة إلى علط ، ثم أصبحت عط بمرور الزمان . وهى أيضا وردت فى أغلب الأعمال الأدبية العظيمة على مر التاريخ ( هذا كلام الدكتور ) ، فالعرف الأعمى ترسيس وقف يصرخ بالصوت الحيانى أمام الملك الجبار ويقول : لقد حفيت قدماى من كثرة الألط ، أى من كثرة العط ، أى من كثرة المشى ، إذ لم يكن هناك أتوبيسات فى ذلك الزمان ! .

والعبرى شكسبير أبرز الكلمة فى عبقرية متناهية فى شخصية مسرحية شهيرة هى شخصية عطيل . وإذا نظرنا إلى الكلمة - هكذا يقول الدكتور - اكتشفنا أنها تتكون من مقطعين : عط و يل ، ولكن شكسبير كان يقصد بها عط فقط وأضاف إليها بقية الكلمة هربا من المحاكم ، فقد كانت أسرة عط لا تزال تعيش فى قرية جاكسا من أعمال مدينة طنجة على شاطئ المضييق ! .

ويقول الناقد الانجليزى الشهير هابين كوربىض ( والكلام للدكتور لويس ) : إن شكسبير أراد أن يفسر الشخصية ويحللها ، فعطيل رجل عطاط مغربى

كذاب يفتح الكتاب ، عط من بلاده إلى بلاد الأغراب وذهب فى العط إلى بعيد فأحب يديمونة وعط أكثر فذهب إلى قبرص وعط أكثر وأكثر فقتل يديمونة ، بوشاية من ياجو الشيطان . إن نهايته المأساوية كانت نتيجة لعطه الذى ليس له غاية .

وهناك أيضا - الكلام للدكتور أيضا - الراهب عطا الله الذى راح يضرب فى الأرض بلاغاية صارخا فى الناس : استعدوا ليوم القيامة . وساح فى الأرض عشرين عاما بدأها من فلورنسا إلى أنفلونزا ، إلى كلومانزا ، حتى استقر به الأمر أخيرا فى بنى مزة ، وهو الاسم اللاتينى لما يعرف الآن ببنى مزار . وأثناء عطه فى أنحاء الصعيد الجوانى دخلت فى قدمه شوكة فتقرحت قدمه وتقيحت ، ومات ميتة الأبطال ! وسمى عطا الله لأنه كان يعط فى الأرض باسم الله .

ولكن المجمع اللغوى المصرى لا يوافق على رأى الدكتور لويس عوض ويقول فى نشرته السنوية : إن كلمة عط كلمة عربية استخدمتها قبيلة فزارة أيام الجاهلية وجاءت على لسان شيخها « نحن قوم اذا عططنا لا نميل » ، أى أنهم شديدو البأس ، أقوياء الشكيمة ومهما بلغ العط فأنهم لا يتعبون . وعن حجاج ابن مزجج عن زوابة بن مشلج عن أشجع بن وهذان المخزومى أن شيخ قبيلة فزارة قال : خرجنا فى ليلة قمرية إلى وادى العقيق ، فمر بنا عرجون بن مستلف الزمان وكان معه غلام يقال له أعط ، فدعوناهما للنزول فأقبل الغلام وابطأ عرجون بن مستلف الزمان ، فقلنا للغلام : ويحك ما يحبس مولاك ؟ قال : كان عند صاحبه فى مكان يقال له الخنفار ، فأكل القسب ( التمر اليابس ) والجلجلان ( نبات مالح ) ويبدو أن سيدى أكل كثيرا فأصابه العط . فسألناه : وما هو العط ؟ ( وكان الغلام يتكلم بلغة أهل حمير ) فقال : العط يقع للإنسان عندما ينهد منه الحيل وتنشخ منه الركبتان ، فيقال على الرجل الذى ألم به هذا العارض رجل عط ، فإذا أمعن المرض فيه واستفحل قيل رجل معطوط ، ويقال للرجل العطاط اذا كان ثقيلًا يخافه الناس وينفرون من لقائه . ورجل عطاط للكريم السخى ..

قال الأمهر بن مشهور في مدح حاتم الطائي :

وعطعاط بأعلى حديدة إذا نصبت لم تضرب الحد بالنصب

طعمنا على سغب فيدعى بالقرى لعطعاط أدام الطعم من سغب !

هذه إذن هي مصادر العط ، عرضناها عليكم كما عرفناها ، وحرصنا على أن نذكر كل المصادر ، شعبية ورسمية وأكاديمية وكلاسيكية ، وعلى كل لون ، ونستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا ، رحلة العط التي ابتلانا بها الله وأخذت من جلودنا راقات ، ومن أعمارنا سنوات وسنوات ، ولكن قبل أن نبدأ رحلتنا هناك ملاحظة لأبد من إثباتها هنا ، حتى لا يظلمنا قارئ أو يفترى علينا ناقد . فالفرق بين رحلة ابن بطوطة ، ورحلة العبد لله ، هو الفرق في الزمان وفي المكان أيضا .

عندما بدأ عمنا ابن بطوطة رحلته الميمونة على صهوة بغل ، كان الوطن العربي يسترخى في هدوء ، الحدود سداح مداح والبساط أحمدي ، والمزاج رايق والرؤوس مرفوعة والأعلام أيضا ، والظهور مشرعة والسيوف أيضا . وكان أمير المؤمنين يعطس في القاهرة فيقول له من في الدار البيضاء يرحمكم الله . وكان العربي يسافر في أرجاء الامبراطورية بلاد الله لخلق الله ، فلا حدود ولا جوازات ولا جمارك بالمصرى أو كمارك بالعراقي ، أو مكوس كما يسميها البعض في بلاد بني عدنان . وكان السفر في بلاد العرب على أيام عمنا ابن بطوطة أعزب ليس له جواز . ولم تكن هناك تأشيرة خروج ، ولا تأشيرة دخول ، ولا إذن عمل . وكان الدينار العربي يساوي عشرة دولارات هندی ، باعتبار أن الهنود الحمر كانوا هم أصحاب الدولار في ذلك الزمان ! كان هذا هو حال العرب في زمن عمنا ابن بطوطة ..

أما الآن في زمن العبد لله .. فلا حول ولا قوة إلا بالله . الجمارك في كل مكان من بلاد العرب لاتنقض إلا على العربي ، ولا تفتش إلا من يبدو من

سحنته أنه من نسل قحطان ! وصاحب الشرطة في بلاد العرب الجديدة لا يقتفى إلا أثر العرب الأغراب ، ولن تجد في سجون العرب أحدا من صنف الألمان أو الطليان ، فما بالك بصنف الانجليز أو الأمريكان ؟ .

ستجد مصريا مسجوناً في سجن العراق ، وعراقيا مسجوناً في سجن سوريا ، وسوريا مسجوناً في سجن الخليج ، ومغربيا مسجوناً في سجن ليبيا ، وليبيا مسجوناً في سجن تونس ، وفلسطينيا مسجوناً في كل السجون ! .

وإذا كان عمنا ابن بطوطة قد خرج على ظهر بغلته من طنجة إلى تلمسان بالجزائر ، ومن تلمسان إلى صفاقس بتونس ، ومن صفاقس إلى برقة في ليبيا ، ومن برقة إلى الاسكندرية في بر مصر ، وقد قطع المسافة كلها على ظهر البغلة ، فلم يتوقف إلا لينام ولم يتمهل إلا ليستريح .. إذا كان عمنا ابن بطوطة ، قد قطع المسافة كلها آخر راحة وآخر انسجام ، فالسفر من القاهرة إلى ليبيا اليوم محنة ولا محنة الحسين ابن علي في يوم كربلاء .

ومع أن الجغرافيا تقول إن مصر وليبيا دولتان متجاورتان ، إلا أن الجغرافيا السياسية تفرض على العبد لله إذا أراد السفر إلى ليبيا ، أن ينتقل أولا من القاهرة إلى اليونان ، وكل انسان حر يركب الطائرة أو يركب البحر . فإذا ركب الطائرة فقد يخطفه زعيم منظمة برمهات الأصفر ، وسر الخطف أنه زعلان مقهور ويشعر بإحباط ويقنس الحياة الزوجية ، ولكنه يريد أن ينتقم من أجل كامب ديفيد . ولا يمكن القضاء على كامب ديفيد ، إلا بذبح عشرة صعايدة ، وإحراق جثث خمسة جدعان من المنوفية ، وخنق امرأة وطفلها من بني سويف . ولذلك فخطف الطائرة وإحراقها هو واجب قومي ، وهو نضال يستوعب هموم الأمة ، ويصوغها ثم يعيدها إليها حتى لا تصبح عصية عن استيعاب هموم المرحلة !! ولكي يظل الحل مؤجلا حتى يتم العثور على حل عن طريق الثورة المستمرة لهذا المأزق التاريخي العصيب ! وحتى إذا وصلت الطائرة إلى اليونان فسيأخذ الطائرة إلى طرابلس . وسيعلم الله وحده ما الذي سيحدث له أثناء التفتيش في الجمارك والمكوس ، وزمان ذهب عمنا ابن

بطوطة إلى الخليج ، وقطعه ذهابا وإيابا ، ولا سؤال ولا جواب ، ولا تحقيق ولا تفتيش ، ولكن الآن .. فى زمن العبد لله ، يحتاج المسافر إلى الخليج إلى ( كفيل ) ! وزمان كان الكفيل للقاصر واليتيم ، أما اليوم فى زمن العبد لله ، فهو للصحفى والمستشار والطبيب . دليل على أن أولاد يعرب قد صاروا فى هذا الزمان يتامى ومشردين ! .

لشد ماتغيرت الأحوال منذ عهد عمنا ابن بطوطة ، إلى عهد أخيكم ابن عطوطة ، الذى داخ مثل عمنا زكريا الحجاوى السبع دوخات ، ولذلك ستكون رحلة ابن عطوطة على مقاس التأشيرات التى حصلنا عليها ، وإذن العمل الذى سمح لنا به ، ولأننا انشغلنا أثناء الرحلة فى العثور على تأشيرة والبحث عن كفيل ، ولأن أغلب وقتنا ضاع بين الجمارك والجوازات وشرطة الحدود ولم يبق إلا أقله للكتابة .

وفى أيام عمنا ابن بطوطة لم يكن يصدع دماغه شئ ، فلم تكن قد نشأت بعد إذاعة صوت العرب ، ولا إذاعة صوت العروبة ، ولا إذاعة حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن حزب البعث المشتركى قد اهتم بالمشكلات الكثيرة ، التى تتعلق بالمفاهيم والمصطلحات المستخدمة فى التعبير عن إطار ومضمون المصالح الحيوية الحقيقية ، بقدر الاهتمام الزائد والملحوظ بهذه التقاليد التى افترنت بهذا التفكير الواعد بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة !! ...

وياللى انكتب عليك العط

اصبر دا الرب مش ناسى

ولم يكن فى زمن عمنا ابن بطوطة قد تم طبع الكتاب الأخضر المسوخ حيث الشمولية الكونية التى تبدأ وتنداح وتترجح وتنسج وتنسج على ثلاث مراحل : عربيا فى البداية ، إسلاميا بعد ذلك ، كونيا فى النهاية ..

وياللى انكتب عليك العط

اصبر دا الرب مش ناسى

ولم تكن اتفاقيات كامب ديفيد قد عرفت طريقها الى الحياة بعد ، والسبب أن ديفيد نفسه لم يكن له وجود ، كان ديفيد فى زمن عمنا ابن بطوطة يشتغل فى اصطبلات مولانا السلطان ، وكان ميمون اليهودى يشتغل طبيا فى قصر السلطان ، كان اليهودى مجرد مواطن فى الإمبراطورية العربية ، يشكر ربه اثناء الليل وأطراف النهار لوجوده فى بلاد العرب بعيدا عن أوروبا ، حيث محاكم التفتيش وأفران حرق البشر عمال على بطلان . فى ذلك الزمان البعيد السعيد لم يكن فى بلاد العرب ألف تنظيم وتنظيم ، وكلها تهدد وتتوعد ، وتعد بالتحريض والتعمير ، وينتهى أمرها جميعا ، الى اغتيال صحافى فى روما ، وتلميذ فى لندن ، وصايع فى اليونان ، أما التحرير فستجد تحريرا كثيرا فى صحف النضال التى تصدر فى الخارج ، أما التعمير فما أحلى التعمير والتعميرة على أى رصيف فى وطننا السعيد ومن شاطئء الخليج إلى شاطئء المحيط ..

وياللى انكتب عليك العط

اصبر دا الرب مش ناسى

ولم يكن فى زمن عمنا ابن بطوطة أفلام من إنتاج على حبلىص ، ولا فوازير من إخراج سعد أبو كتاف ، ولا مطربون كهؤلاء الذين سدوا علينا عين الشمس فى هذا الزمان . ولم يكن فى بلاد العرب أيام عمنا ابن بطوطة شركات من نوع منوفكو ، وعبد العاطكو ، وعبد العزيزكو . وكان الفلاحون فى زمانه ، انتاجهم وفير وخيرهم كثير ، ومواندهم ممدودة للعابر وابن السبيل . وقد لاحظ عمنا ابن بطوطة هذا الأمر ، فدون فى رحلاته يقول : والمسافر فى بر مصر لا يحتاج الى حمل زواده معه ، لأن خير الريف وفير ومبذول وعلى طول الطريق . الآن صارت فراخ الفلاحين هى فراخ الجمعية ، وسمن الفلاحين



هى السمن الهولندى ، وعيش الفلاحين يخبز فى القرن الأفرنجى ...

ويا آسفاه على الفرق الرهيب بين زمان العبد لله ، وزمان عمنا ابن بطوطة !.

كان أبطالنا فى زمانه ، من نوع المظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، والناصر صلاح الدين ، واليوم صار أبطالنا الساحر الخطيب ، والنجم محمود يس ، والسيد العقيد ، والأخ المناضل ، والمجاهد الأكبر ، وطويل العمر .

أسماء وألقاب ، ونياشين ورتب وسيوف وصولجانات .. وهلمة ..

ويا للى انكتب عليك العط

اصبر دا الرب مش ناسى

## يا عينا على طنجة !

رحلة العبد لله بدأت فى قلب العواصف، كانت قمم الجبال فى الجزائر تشتعل بالنار، وكان الملك محمد الخامس عائداً لتوه من المنفى، وتونس على عتبة عصر الاستقلال، وكانت شعارات القومية مرفوعة، ورايات الثورة خفاقة، وطبولها تدق فى كل مكان.

ولقد بدأت رحلتى من القاهرة إلى روما، ومن روما إلى مدريد، ومن مدريد إلى طنجة، لأنه كان صعباً علينا نحن العرب أن نخترق أرض العرب، ففى ليبيا كانت هناك ثلاثة جيوش أجنبية: انجليزية وفرنسية وأمريكية، والحدود بين مصر وليبيا مقفولة وفى ليبيا خائن اسمه المشلح، أو المتسلح، أو الشلحاوى، يشرف على بناء سور مثل سور برلين يعزل مصر عن ليبيا ؟ وكان دخول ليبيا بالنسبة للمصرى أصعب من دخول إبليس الجنة، وكان على العبد لله إذا أراد الذهاب إلى المغرب أن يمر عبر أوروبا.. وهكذا كان. وانتظرت شهراً فى مدريد للحصول على تأشيرة دخول للمغرب، وكنت

ولأنه ، سبحانه مش ناسى ، أسأله اللهم أن يكفيننا شر العط ، وأن يبعد عنا المخبرين والبصاصين ، وأن ينقذنا من شر العسس والناس اللبظ ، وأن يحفظنا من شر أولاد الحرام وأولاد الحلال أيضا ، وأن يشملنا بعطفه ورحمته حتى نجوب كل بلاد ولد عدنان .. آمين يارب العالمين .

محظوظاً لأننى كنت أول بنى آدم فى العالم يحصل على التأشيرة رقم ١ لأول حكومة بعد الاستقلال فى المغرب، وطرت فى الليل من مدريد على متن طائرة أسبانية، طائرة مبطوحة ومجروحة وكما لعبة الأطفال، راحت تتأرجح وتتمرجح، وخيل إلى وأنا فى الجو انتقلب واتقلب، أننى أخطأت التقدير، وبدلاً من أن أركب طائرة بمحرك واحد ركبت طائرة بجناح واحد، ولولا العيب والفضيحة لو قفت وسط الطائرة ألطم الخدود وأشق الجيوب على طريقة ستات الجاهلية! المهم.. نزلنا طنجة فى الليل وخرجنا من المطار سهلة، فلا تأشيرة ولا تكديرة، فقد كانت طنجة مفندقة، وأبوابها مفتوحة على جهنم الحمراء، وفيها سبع حكومات وسبعة حكام، وخمسون ألف عربى ومائة ألف أجنبى كلهم جواسيس! وفى طنجة مائة نوع من العملة، وعشر لغات، والكل فرحان وسعيد وقابض ومسرور، إلا صنف العرب.. آخر فقر وآخر بهدلة! عندما ذهبت إلى فندق المنزه على شاطئ المضيق، نظر موظف الفندق إلى العبد لله باحتقار، وقال: لا توجد أماكن هنا، وعندما بدا على سحتنى أننى لم أفهم، أعاد على الكلمات بغلظة، فلما كلمته بالانجليزية انحنى كرقم ٦، وضرب تعظيم سلام، وقال: عفواً سيدى ظننتك من أهل البلاد، وخصص لى غرفة فاخرة على البحر، وحمل حقائبى بنفسه الى الغرفة.

كانت طنجة تضيق بكل البضائع من كل أنحاء الأرض، وكانت تموج بكل الأصناف والأشكال من صنف البنى آدمين، فقد كانت طنجة دولية.. لا قانون ولا أخلاق ولا تقاليد، المهم الربح من أى طريق وعن أى طريق! قاندى ولد هندى فى اليوم التالى وسار بى عبر حارات وأزقة ومسالك، ودخلنا من باب سميك وهبطنا بضع درجات تحت الأرض، ووصلنا إلى سرداب شاهدت فيه عدة أشخاص، كانوا فيما مضى من صنف البنى آدمين، والكل مسطول ومنسجم وشارد مع أحلامه أو مع أوهامه، وحلقات الدخان فوق الرؤوس تنعقد وتنفرط، آخر سعادة وآخر ضياع، وجلست مع القوم وهم يدخنون (الكيف)، انفرج على الوجوه المجدورة والأيدى المعروقة، وخيبة الأمل التى تتركب

جمل، وللأسف كل الرواد كانوا من صنف العرب، ولكن صاحب الماخور خوجة من بلاد البرتغال، وخدم الماخور من بلاد الهند، والحشيش تركى ولبنانى وهندى ومغربى! وعلى شاطئ طنجة رأيت أجمل نسوان الأرض، يعرضن على المكشوف وعلى المفتوح، وكل شيء ظاهر وبابن وعلى عينك يا تاجر، والست الحشمة تغطى نفسها بطابع بريد، والشاطئ نفسه كالجنة، ورود نابئة من الأرض وورود ماشية على الأرض، وفلوس كموج البحر تأتى وتروح، وأطعمة تلقى للأسماك تكفى سكان الصومال، وخمور تراق على الأرض كأنها أمطار الصيف فى السودان، وكل العرايا على الشاطئ خواجات، وكل الخدامين عرب مغاربة، والكل يرطن بلسان واحد، بفعل الاستعمار فقد العرب لسانهم وتكلموا بلسان الأعداء!.

كانت طنجة بحق - أيام حكم الخواجات - هى بلد التجارة والدعارة، ولكن الجاسوسية كانت أربح تجارة على الإطلاق. وكان معى فى الطائرة التى أقلتني إلى طنجة ولد مصرى صميم، مغامر وعلى موعد مع الموت فى كل لحظة، قلبه ميت لا يعرف الخوف، وكان عين مصر فى شمال إفريقيا، وكان هو الجسر بين الثورة المصرية والثورة الجزائرية، الولد اسمه عبد المنعم النجار، وكانت وظيفته الرسمية، ملحق مصر العسكرى فى مدريد، وترقى بعد ذلك فصار سفيراً لمصر فى باريس، ثم سفيراً لمصر فى بغداد، وأعتقد أنه يعيش فى مصر على المعاش.. لقد طواه النسيان ولعل هذا النسيان هو ثمن تلك الأيام المجيدة العظيمة الماضية. وبسبب عبد المنعم النجار تبعنا منذ أول لحظة عشرة جواسيس يعملون لحساب عشر جهات، وحذرنى عبد المنعم النجار طالما أنا فى طنجة، فالكلام ممنوع، والذهاب إلى مجاهل طنجة ممنوع، والحديث مع الغرباء ممنوع، لأن النجار نفسه جاء إلى طنجة فى مهمة من أجل الثورة العربية فى الجزائر: كان فى طريقه لشراء أجهزة لاسلكية تحتاجها الثورة، وكل شيء حاضر، الفلوس حاضرة والأجهزة موجودة، ولكن البائع الايطالى رفض تسلم الثمن بالبليزتا الأسباني، وأصر على أن يتقاضى الثمن بالدولار، ولذلك دخنا دوخة الأرملة العجوز ونحن نحول البليزات الى

دولارات، وجاء مندوب الثورة وحمل الأجهزة فى شاحنتين ومضى فى ظلام الليل إلى المجهول! وانتهت مهمة النجار وعاد الى مدريد، وبقيت وحدى وسط غابة الوحوش أحذر أن أتكلم، أحذر أن اتمشى، أحذر أن اتفرج، وأغلقت حجرتى على نفسى لأنجو من المعارك والمهالك، ولكن منظر مندوب ثورة الجزائر لم يفارقنى لحظة، اسمه الحركى إدريس، وهو أشبه ما يكون بقائد ألماني عظيم، الرأس مخلوق تماماً، الملامح محددة فيها شيء من عنف المقاتل ورقة الفنان، صامت لا يتكلم كأنه لا يعرف ما هو الكلام، إذا سألته لا يجيب، لم أسمع صوته إلا مرة واحدة عندما ودعته على حدود طنجة، قلت له: قريباً نلتقى فى الجزائر، فهتف قائلاً: الله كريم! .

كانت معركة الجزائر هى أشرس معارك العرب ضد خواجهات أوروبا المتطهرسين، كانت بلاد العرب فى رأيهم هى مزرعة أوروبا.. لا تزيد! وكان جيش التحرير الجزائرى فى واقع الأمر، هو جيش الانتقام الذى قام ليثأر من سنوات الذل والجوع، ولم يجمع العرب فى تاريخهم الحديث على شيء قدر إجماعهم على ثورة الجزائر، ولم يلتف العرب حول شيء التفاهم حول ثورة الجزائر، وحظ العرب والجزائر أن الطقس كان مناسباً، والريح كانت مواتية! .

وإدريس ذهب إلى الجزائر، وأنا حبيس الفندق لا أبرحه، فى انتظار من سوف يحضر ليصحبني معه عبر صحراء وجدة إلى قمم الجبال حول تلمسان، وفجأة دق الباب وانخل قلبى، فلم يكن هناك مفر من فتح الباب، واكتشفت أنه على الباب أنثى تحشر نفسها فى بنطلون، كان ذلك منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ولم أكن قد رأيت بنطلوناً على ستات المشرق، وقالت الست المتبنتلة: « ألق عندك لو كيد؟ »، وقلت للست: أفندم؟ أعادت الست الكلمات نفسها بالحروف نفسها وباللكنة نفسها، قلت فى نفسى أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم، وأغلقت الباب ودخلت، ولكن لأن العبد لله مهذب فقد أغلقت الباب على نفسى، وعليها!! واستفسرت من الست واستفهمت حتى فهمت، فقد كانت تريد عود

(كبريت) كما يقولون فى مصر، وعود (شخاط) كما يقولون فى العراق، وعود (نقاب) كما قال عمنا ابن مالك صاحب الألفية التى عطلت لغة العرب وسجنتها فى زنزانه لها قضبان من ألف بيت من أسخف الشعر! وحكت الست قصتها، وهذأت وأطمأنت للعبد لله وسرت سروراً عظيماً عندما قلت لها: إننى تاجر باكستانى أبيع الخز والحريز، وأننى فى رحلة تجارة وشطارة عبر بلاد الله وخلق الله، وقالت البنت: أنا مغربية من طنجة، بدأت خادمة فى بيت أحد الطليان. وكان الولد الطليانى تاجراً وفاجراً، لأن تجارته كانت فى صنف الأعراض، والبنت الخدماة لأنها كانت مدورة ومكورة فقد وقع اختياره عليها لتقدمها كبضاعة جديدة فى الأسواق، وعندما حدث المقسوم والمعلوم، بكت البنت وشكت، وذهبت إلى حاكم طنجة الأسبانى، ولكنها اكتشفت أن الطليانى للأسبانى كالبنيان المرصوص يسند بعضه بعضاً، ومع أن البنت كانت قاصراً، فحدث من هذا النوع يعتبر جريمة حتى فى بلاد الطليان، ولكن ما دام الجانى خواجه والضحية عربية فلا بأس ولا جناح، فهكذا كانت الأحوال فى بلاد العرب منذ أكثر من ثلاثين عاماً من الزمان: أهل البلاد يستعبدون فى أرضهم، وصياع أوروبا هم أصحاب الأمر والنهى فى بلاد الأعراب.

هكذا كان الحال فى بلاد العرب قبل أن يولد قراء هذه السطور من الشباب، ولكن الحمد لله لأن المولى العزيز أنقذ الجيل الجديد من البلاوى التى عاصرها جيلى.. الذى أعتقد أنه أغلب جيل منذ الجيل الذى شهد دخول ابن عثمان وغزوه لبلاد العرب من حلب إلى صنعاء. ما علينا، فقد احتملنا كل المصائب وتجاوزنا كل العقبات وانتصرنا وانهزمنا، وعلى الجيل الجديد أن يواصل المهمة لجعل الحياة أجمل مما كانت وأفضل مما كانت، هذا دوره الحقيقى، وما عداه مجرد خزعبلات!.

ويا ميت حلاوة على البنت المغربية، أحلى بنات الأمة العربية وأكثرهن رقة، وأقربهن إلى بنات لندن وحسناوات باريس، وفى عيون المغربية رغبة، وفى جسدها نتوءات واختناقات وانبعاجات، معمولة حسب مقاييس ومواصفات

وطبقاً لخطة موضوعة. وأنا - والحق أقول - أحببت المغربية من أول نظرة، ليست مغربية بالاسم أو بالرسم، لكنها المغربية على الإطلاق !.

ولقد تمنيت يوماً، أن أقضى السنوات الأخيرة من عمري في مدينة على شاطئ البحر الأبيض اسمها تطوان. والناس في تطوان خليط من أصل عربي وأسباني، وسبحان من جمع الشامي على المغربي فأنتج هذا العصير الخرافي من صنف النسوان! والبنيت من دول إذا نزلت على الشاطئ سترى جلدها مشدوداً، سبحان الذي أبدع، كأنه جلد طيلة مشدود على وهج النار، فلا هبشة ولا خدشة، ولا عضه ولا رضة، ولا ترهلات ولا كرمشات. وليس الجسد وحده هو سر سحر المغربية، ولكنها الروح أيضاً، فما أشد جراءة المغربية وما أعظم تحررها، بالرغم من اختفاء الوجه أحياناً تحت الحجاب! والرجل المغربية ما أكرمه، في السلم فنان وفي الحرب ولا أسد جوعان، وفي حرب أكتوبر مثلاً ادعت إسرائيل أن الجنود المغاربة الذين كانوا يقاتلون على الجبهتين أكلوا بعض عساكر إسرائيل أحياء، وهو ادعاء كاذب بالطبع، ولكنه يعطيك فكرة عن الرجل المغربي إذا شمر ساعده للقتال.

وتجولت في أنحاء المغرب بزي مغربي ولهجة مغربية، وعشت أياماً بين طنجة والقنيطرة وسلا والرباط والدار البيضاء وفاس ومكناس وخنيفرة ووادة وتطوان. وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن البال إنه ليس أجمل من أوروبا إلا المغرب، وليس أجمل من المغرب إلا جنة رضوان. ولكن أوفقيير الشيطان حول الجنة يوماً ما إلى جهنم الحمراء، وجعل من الأسود الضواري أرناب برية تظهر في الظلمة وتختفي في النهار، وحول المغرب إلى منطقة طرد بعد أن كانت منطقة جذب .. لعنة الله على الحاكم الظالم لأنه أشد وطأة على البني آدميين من الوحش الجوعان! والظلم قديم قدم الانسان، وزمان كان الحكام ظلمة، ولكن وسائلهم كانت بسيطة .. عندما هرب عبد الرحمن الأحمد من عساكر العباسيين بعد كسرة بني أمية في معركة الزاب، لم تستطع العساكر أن تلحق به، وتركوه يعبر النهر أمام أعينهم، ثم اختفى بعد ذلك فلم يعثروا له على

أثر، والسبب أن السلطان لم يكن لديه سيارات نجدة ولا طائرات هليكوبتر ولا أجهزة لاسلكي، ولم تكن له مباحث عامة، ومباحث أمن دولة، ومباحث جنائية، ومخابرات، وقيادة قومية، وقيادة قطرية، وأحزاب تشتغل بالتجسس. ولم يكن لدى السلطان القديم عساكر حدود وأجهزة للتصت ومراقبة على التليفونات. كان السلطان مجرد بني آدم مثل غيره من البني آدميين، والفرص متساوية بين السلطان ومن يعارض السلطان، المهم ألا يقبض عليك بيديه، وإذا لم يفعل فأنت إذن حر وحياتك في أمان! .

وفي تاريخ مصر مثلاً، رجل اسمه أحمد بوشناق، كان خادماً لدى علي بك الكبير، وأقضى سراً لسيده فاستدعاه على الكبير ذات مساء، وسأله في خبث: ما جزاء من يفشي السر؟ وأجاب أحمد بوشناق: الموت، وقال علي بك الكبير وهو يتنهد ارتياحاً: أنت حكمت! ثم خلع عليه الخلعة ومد له السماط فأيقن بوشناق أنه هالك، فاستأذن سيده في أن يتوضأ ويصلي فأذن له، فلما خرج إلى فناء الدار قفز على حصانه، وانطلق به هارباً من دار علي بك الكبير في حارة الداودية في شارع محمد علي قاصداً وجه بحري. ورغم جبروت علي بك الكبير، ورغم دولته المهيبة، لم يستطع أن يعثر على أحمد بوشناق، واختفى الهارب سنوات طويلة، ثم ظهر بعد ذلك والياً على عكا وباسم آخر .. أحمد باشا الجزائر! مسكين أحمد باشا الجزائر، لو أنه يعيش في عصرنا وغضب عليه السلطان وفر هارباً، لظفر به السلطان ولو كان في بلاد الواق واق.

ويا أسفى على المغرب العربي في ذلك الزمان فالكلام عربي واللكنة فرنسية، والبنيت المغربية ترتدى العباءة ومن تحت العباءة الميني جيب، والرجل المغربي يتكلم العربية ويفكر بالفرنساوي. وأنا عشت أياماً كثيرة في المغرب أيام سطوة أوفقيير وعنفوانه، وشعرت كيف يعيش الانسان مرعوباً وهو يتنزه، مرعوباً وهو يعمل، مرعوباً وهو يأكل، مرعوباً وهو يهضم، مرعوباً وهو نائم، مرعوباً وهو مرعوب!.

وإذا كنت أنا الغلبان العدمان قد شعرت وتعلمت، فأنا لا أعتقد أن أحداً من

السادة الطغاة قد فهم الدرس أو تعلم! ولا يزال يعيش فى أرجاء الأرض العربية مائة أوفقيير وأوفقيير ، وعذرنا الوحيد أن درس الماضى يؤكد أن النتائج التى انتهت إليها أحداث الأمس هى نفسها التى ستتحقق فى المستقبل! حكمة إلهية لكى تنمو الحياة وتستمر بالرغم من أنوف الطغاة. ولقد كنت محظوظاً عندما ألفت بى الظروف فى مدينة خنيفة، ونمت ليلتى هناك عند القائد مهروق زعيم قبائل البربر، وفى لحظة واحدة تبخرت كل معلوماتى التى قضيت أعواماً كثيرة فى تحصيلها، فالمدرسة الفرنسية تزعم أنهم من الجرمان، وأنهم عبروا أوروبا حتى وصلوا إلى الأندلس، ثم عبروا المضيق واستقروا فى شمال إفريقيا. والمدرسة الألمانية تقول إنهم من اليمن، وأنهم عبروا آسيا إلى أوروبا ثم انحدروا إلى الشمال الإفريقى .. مدارس وعلماء وكتب وفنون ومتاحف ومعارض كلها شغل أوروبا؟ وكل أشغال أوروبا فهى أشياء لامعة وملعطة وفلصو! وفى ضيافة القائد مهروق أدركت أن البربر عرب أقحاح من نسل قحطان! وقد تكون المدرسة الألمانية أقرب إلى الحقيقة ولكنها ليست الحقيقة كاملة. إنهم عرب من بطون وأفخاذ قبائل قديمة، تعرضوا للارهاب والغزو والغدر فآثروا الهجرة قبل الاسلام. ونحن عرب هذه الأيام لا نعرف كثيراً عن عرب الجاهلية. لابد أن البربر هؤلاء خرجوا فى تغريبة مثل تغريبة بنى هلال، ولذلك سترى البربر فى واحة سيوه فى صحراء مصر، وستراه على حدود موريتانيا، وسترى بعضهم فى تشاد وفى السنغال. وأغلب الظن أنهم لم يذهبوا إلى أوروبا ولم ييصروها على الإطلاق، بل إنهم انحدروا من اليمن إلى صحراء سيناء الى المحروسة مصر الى الشمال الإفريقى. ولكن، لأن أوروبا مصرة، ومصممة على أن يكون كل شيء وأى شيء عبر حضارة أوروبا، فلا بد أن يكون البربر قد ذهبوا إلى أوروبا!.

والحمد لله الذى جعل بتوع أوروبا لا يصرون على أن سيدنا عيسى بن مريم سافر وتجول فى أوروبا، وأن موسى استقر بعض الوقت مع أخيه فى أوروبا! الحمد لله الذى جعل بتوع أوروبا لا يزعمون هذا الزعم! أما البربر فدليلى

معى أفقاً به عيون علماء أوروبا، وهل هناك دليل أسطع من أن أعظم ثوار الشمال الإفريقى كانوا من صنف البربر، وكانت غايتهم العروبة ورايتهم الاسلام: طارق بن زياد كان بربرياً، ومصطفى بن بولعيد أعظم شهداء ثورة الجزائر كان بربرياً، وبين طارق وبولعيد - وعلى بعد المسافة بين القرن السابع والقرن العشرين - ستجد مئات من أبطال العروبة كلهم من جنس البربر، وما عدا هذا من روايات وحكايات فكلها تفانين أوروبية، وتحشيش خواجاتى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويا قوة الله على المغرب .. تمشيت أفرنجى فى أرجائه لمدة شهر اتسكع على شاطئ المحيط، اتمشكح على شاطئ المضيق، أرنو بعينين دامعتين الى الشاطئ الآخر فى الأندلس، كانت لنا هناك يوماً ما دولة وصولة، وكان أجدادنا الميامين يعيشون هناك فى عز وعزة، ثم تغلب عليهم حب الرئاسة، فتقاتلوا بالحرا ب والسيف وبالخنوس، فلما تكسرت تجاذبوا بالشعور، ثم نهشوا لحوم بعضهم بعضاً بالأنياب والضرور! وبكى آخر ملك عربى فى الأندلس وهو يغادر الشاطئ الأوروبى إلى الشاطئ الإفريقى، فقالت له أمه ساخرة: «ابك كالنساء على ملك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال». ما أبلغ حكمة الأم العجوز لابنها المتهاك المتهافت! فقد الأرض، وفقد العرض، فراح يبكى كالنساء .. ملعون أبوه! .

درس القرون الماضية لم نتعلمه، ولم نستفد منه شيئاً، عادت ريمة لعادتها القديمة، انفتاح وانفشاخ وتكالب وتصلح، ولكن أحداً من السادة الأبا ع لم يجد أمأ تصرخ فى وجهه «ابك كالنساء على أرض لم تستطع أن تحافظ عليها كالرجال». ومن مراکش إلى وجدة، أنا قطعت أرض الله، عليها وحواليها مزارع معدودة، وخيرات مبذولة، وكنوز مدفونة، وجو ولا جو أوروبا، وخضرة ولا الخضار الطازج فى أسواق بلدنا، وناس ما أحلامهم وما أشهامهم. ولكن الخيبة القوية من دمشق الى الاسكندرية أننى حاولت الكلام مع أحدهم فلم يفهم ماذا أرغب، أنا العربى ابن العربى اتكلم مع أخى العربى فلا يعنى، ويتكلم

معه الخواجة فيلبي ويجرى كالنحلة. ولكن عذرى أننى الآن فى وجدة،  
والجزائر على مرمى حجر منى، والرجل الذى تحدثت معه ولم يفهم  
(جزائرى) صار أبكم تحت حكم الاستعمار. ولكن ها هى الجزائر أخيراً،  
وغداً ندخل الأرض التى أكلت من الجثث حتى شبعنا وشربت من الدماء حتى  
ارتوت. ووجدت نفسى اهتف رغباً عنى : «يا خفى الألفاظ نجنا  
مما نخاف!».»

## خاتمة التيسر !

وعندما وصلت إلى وجدة رأيت بصيصاً من الأمل : معسكر الثورة  
الجزائرية وعلم الجزائر يخفق عليه ، وأبناء الجزائر يقبضون على السلاح  
للكفاح فى عزيمة وحوش الغاب . ونمت ليلة فى معسكر ( العربى بن  
مهيدى ) ، شهيد من شهداء الثورة التى أكلت من الرجال حتى شبعنا ،  
وشربت من الدماء حتى ارتوت ! وكان معى عمنا العجوز الصحافى الكاتب  
العاشق الأبدى لتراب مصر المحروسة ، محمد عودة ، وكان ثالثنا فى  
الغرفة الصغيرة التى احتوتنا أحد سيوف الثورة وقائد جيشها الباسل  
الكولونيل بومدين ، الرئيس بومدين بعد الاستقلال . كان بومدين يدخن  
باستمرار ، وعيناه اللتان تشبهان عيني الصقر تحدقان عبر أسلاك المعسكر  
إلى حدود الجزائر . كان يتكلم عن مستقبل الجزائر كأنه يقرأ فى كتاب  
مفتوح . ولم يكن فى الحجرة شئ إلا الأثاث الذى يستعمله الجنود ، وعلى  
الحيطان مجموعة صور متناثرة : صورتنا جنرال جياب وماوتسى تونج ،

وتوسطهما صورة عبد الناصر . كان بومدين يحلم بجزائر عربية واشتراكية .  
كان يرى أن الوطن العربي مهيبض الجناح لأن المغرب العربي فى أسوأ  
حالاته . كان يردد بيت شعر للمتنبى :

ولست أرى فى عيوب الناس عيبا  
كنقض القادرين على التمام

مصيبية العرب الكبرى أن لديهم الإمكانيات لتحقيق الأمجاد نفسها التى حققها  
أسلافهم ، ولكنهم بدلا من الغزوات فى سبيل الله ، راحوا يغزون فى سبيل  
المتعة ، وتحولت القادسية إلى فريق لكرة القدم ! ومرج دابق وقع فى أسر  
اليهود ! وصلاح الدين أصبح محلا لبيع أجهزة التلفزيون فى القاهرة !  
والظاهر ببيرس لم يعد أحد يذكره إلا شاعر الرماية ! وقادة بعض البلاد  
مشغولون الآن بإقامة الحد على الفقراء من المسلمين ، ومتفرغون بعد ذلك  
للصلاة فى أندية لندن ، والصيام فى مواخير باريس ! كأنما حدود الله من  
نصيب الفقراء ، أما الأغنياء فهم بالطبع .. أحباب الله !.

مجموع ما أنفقته قبائل بنى كلب على موائد القمار فى لندن ذات عام بلغ عشرة  
ملايين جنيه . وقبائل بنى كلب هم الرعاع من قبيلة بنى كليب . أما شيوخ بنى  
كليب أنفسهم فقد أنفقوا على موائد القمار مليار جنيه ! هذا عدا وجوه الإنفاق  
الأخرى التى اكتشفها بنو كليب : من أول الويسكى إلى الكافيار ، إلى الهزار ،  
إلى لهط اللحم الأبيض . وهى تكاليف ما أنفقها أحد من قبل وعلى مر العصور ،  
ومن الليلة بتاعة شمشون وحتى الآن ! .

ولكن معسكر العربى بن مهيدى يقف وسط الأرض الخراب كمشعل نور  
لعرب المستقبل ! عرب يرفعون اسم الله ، وينشرون عدله ويمهدون سبله ،  
ويقومون حدوده على أنفسهم قبل الغير ! .

وكان معسكر العربى بن مهيدى كحمام لتطهير النفس قبل أن نجتاز حدود

المغرب إلى أرض الأبطال والشهداء .. الجزائر . ولا أنسى لحظة وقفت فيها  
على الحدود أخلع نعلى حتى لا ألوث أرض العزة والثورة ! .

وعبرت حدود الجزائر . وسجدت أطبع قبلة على أرضها . التراب معجون  
بدم الشهداء ، والهواء يضيق بمئات الألوف من الأرواح التى ماتت لتحمي  
الجزائر . ولقد لفت نظرى وجود بنات يحملن السلاح مع الثوار . ولم أكن قد  
رأيت لدى عرب الشرق بنات يحملن السلاح قط ! هذه إذن ثورة رائدة لأنها  
كسرت جدران السجن المفروض على صنف الحريم العرب ، فنصف الأمة  
كان معطلا ، وماهو الباب الآن بدأ ينفتح .. ولكن بقدر ! .

ولقد كانت على أرض الثورة فى الجزائر ثلاث فصائل ، وثلاث وجهات  
نظر . حزب مصالى الحاج ، وهو زعيم وطنى تقليدى عيبه الوحيد أنه كان  
لحظة اشتعال الثورة قد أصبح خارج الزمن . ولذلك اندهش كثيرا لأن مجموعة  
من الشباب قد تجرعوا وأعلنوا الثورة دون استئذانه ، وهو من هو ! هو مصالى  
الحاج .. الذى عنده تبدأ الجزائر واليه تنتهى ! ولقد ألف جيشا للتحرير مهمته  
الأولى والأخيرة هى تحرير الجزائر من الفرنسيين ومن جيش التحرير أيضا !  
ونشبت معارك الهول بين الجيشين ، وانتهت بتصفية مصالى الحاج وجيشه ،  
ومات الرجل يرحمه الله ، دون أن يدرك سر القوة الكامنة فى هذا الجيل الجديد  
الذى أشعل الثورة وانتصر فيها .

ثم الحزب الشيوعى الجزائرى ، وهو فرع من الحزب الشيوعى الفرنسى .  
ولقد أعمته جدران النظرية التى حبس داخلها ، فلم ير زهور الجزائر الجديدة  
التي رفعت رأسها تبحث عن شمس الحرية ، وأصمت أذنيه فلم يسمع صيحات  
القومية التى راحت تتصاعد فى سماء الوطن العربى باحثة فى ماضيها البعيد  
عن مستقبل أفضل لها ، ولم يشعر برياح العروبة تهب ساخنة عبر الحدود  
والسدود ، تقتلع كل من يتحداها أو يقف فى وجهها . ولذلك رفع شعار ( تحرير  
الجزائر يبدأ من تحرير باريس ) و .. ( الاستعماريون الفرنسيون يستعمرون  
فرنسا والجزائر معا ) . وكان معنى ذلك فى بساطة هو أن تحرير الطبقة خير

الأبدي العاملة الرخيصة والمنتجة ! فهل نجحت فرنسا ؟ الواقع يقول لا ، لأنك تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد ! .

كانت رواية إدريس الشرايبي عن شاب مغربي عاطل ، كان رافضا كل شيء حوله ، ولكنه لم يكن قادرا على تغيير أى شيء حوله ! ولذلك بصق على الأرض التي ينتمي إليها ، واستقل باخرة متشردة عبرت به البحر إلى فرنسا . وفي فرنسا أراد أن يتعلم لكنه ، بعد فترة ، أدرك أن التعليم ترف لا يقدر عليه إلا الأثرياء ، فهجّر الجامعة واشتغل عاملا في مصانع الخمر . ثم انتقل إلى الميناء ، وعمل بعض الوقت في جمع المحاصيل من الحقول . لكنه ضاق بالعمل ، عندما اكتشف أنهم يستأجرون قوته البدنية الهائلة لقاء ما يحفظ له حياته . فآثر التسكع في شوارع باريس ، يعمل أحيانا في علب الليل ، وأحيانا يشترك في سرقة صغيرة ، حتى اهتدى عن طريق الصدفة إلى العمل الذي كان يتوق إليه : تعرف إلى سيدة فرنسية عجوز كانت مريحة وراغبة في المتعة وثرية في الوقت نفسه ، وكان هو فحلا وقادرا على إشباعها طوال الوقت . وحققت له الوظيفة الجديدة نوعا من الاستقرار كان يفقده ، كما ضمنت له كأس خمر معتقة على مائدة عشاء فاخر كل ليلة ، وأيضاً أجرا ثابتا هو أضعاف أضعاف ما كان يتقاضاه عن أعماله السابقة في المصانع وعلى أرصفة الميناء وفي الحقول ! .

وأحيانا كانت تحدثه نفسه بالثورة على الوضع الذي تردى إليه ، لكنه كان يكتف هذا الصوت المنبعث في داخله ، فلماذا الثورة وهو على أى حال يؤدي عملا وطنيا ؟ ! فهذه المرأة الشمطاء هي فرنسا ذاتها ، وهو يمتطي فرنسا كل ليلة ! وعندما تصبح المرأة العجوز في ذروتها ، وتتأوه بصوتها الرفيع المسلوخ ، تتردد على لسانها كلمات « سيدى » و « عفوك » و « أنا خادمك » ! عندئذ ينشرح صدره ، ويتنهج فؤاده .. لقد هزم فرنسا وأذلها ، وهو جيش تحرير كامل بمفرده ، وسلاحه هو بدنه ، والنصر معقود له كل ليلة ، والهزيمة كاملة لأعدائه ، والتسليم دون قيد ولا شرط !! .

من تحرير الوطن . ولم يكن لدى شعب الجزائر استعداد للاستماع إلى مثل هذا الكلام ، وكيف يمكن أن يصغى شعب لكلام من هذا النوع ، وقد استببح دينه وأرضه وعرضه ، ولم يبق لديه شيء لم يستبح ؟ ! ولذلك انطلق الرصاص في صدور أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري ولقوا جزاء الخونة ! خطأ في التحليل ؟ نعم ، ولكن أدى إلى مأساة مروعة ! ..

وكان الاتجاه الثالث هو الاتجاه الصحيح ، وهو الذي انتصر . وقد بدأت الثورة ببيان صغير إلى شعب الجزائر ، وبخمس عشرة بندقية صيد ، ولكنها انتهت بالقضاء على فرنسا الجنرال لاكوست ، وحطمت الجمهورية الرابعة . ومن أجل هذه النهاية السعيدة ، خاضت الثورة في بحار من الدم . وكما أكلت الحرب زهرة شباب الجزائر ، أكلت خيرة بنيتها ، ولكننا ، رغم كل شيء ، ربخنا الجزائر المستقلة العربية المجيدة . ولقد استمعت إلى وردة الجزائرية أول مرة داخل أرض الجزائر ، وبالتحديد في مكان ما على قمم التلال المطلة على تلمسان الجميلة . كان الثوار يحتفظون لها بأغنية على شريط ، أغنية حزينة تقول « كلنا جميلة ، كلنا فداها » ..

وتعرفت على أدب الجزائر وأنا أنقل الخطى بين القرى المتناثرة في الجبال وهزنتى روايات محمد ديب ، ولكن رواية ( التيوس ) لإدريس الشرايبي هي التي أصابتني بالحمى . رواية تكشف عن مأساة المغرب العربي ، بعمق وبأساذية . وهو روائي عالمي بكل مقاييس العالمية . إنه شتاينبك الأمريكي ، وسمرست موم الانجليزى ، وديستوفسكى الروسى ! وهو قمع لا أعتقد أن أحدا من كتاب العرب الروائيين وصل إليها حتى الآن . عيبه الوحيد أنه يكتب بالفرنسية ، وهو العيب الذى من أجله قامت الثورة على فرنسا . فلم يكن إدريس الشرايبي وحده هو الذى كتب عليه أن ينسى لغته وأن يتكلم لغة فرنسا ، بل كان هذا مصير شعب الجزائر كله .

فقد أرادوا الجزائر ، شاطنا للاستحمام ، ومزرعة للكروم ، ومكانا استراتيجيا للقواعد العسكرية ، وسوقا لتصريف البضائع ، وحظيرة لتربية



ولكن المكافح العظيم يمرض فجأة ، يبصق دما ويكتشف أنه مريض بداء السل . ويكتشف أيضا ، وهو يعاني من الألم ، أنه كان يحقق انتصارات في معارك جانبية ، ولكن السيدة الشمطاء هي التي انتصرت في الحرب وعندما تكتشف عجزه تلقى به في الطريق . إن المرأة العجوز لها جسد وليس لها قلب . والمهنة التي اختارها تحتاج الى لياقة ، فاذا فقدنا فقد الوظيفة ! ويهذى وهو يعاني سكرات الموت على فراش قدر في مستشفى حكومي فقير : هل الطريق الذي اختاره كان هو الطريق السليم ؟ ويردد وهو يحتضر : المغرب ، المغرب . ولم يفهم أحد من المرضى الفقراء الذين التقوا حوله ، هل كان يتحدث عن المغرب وطنه أم المغرب حياته ؟ على أية حال ، لم يكن المغرب الذي يتردد على لسانه سوى هذه الأرض البعيدة التي رفضها ذات يوم ، وبصق عليها وهو يغادرها إلى الأبد ، ولكنها على كل حال هي الصورة التي بقيت في خياله لحظة وفاته ! .

هذه لمحة صغيرة سريعة عن رواية ( التيوس ) ، وقد انتهت بموت تيس ، ولكنها لم تنته من ذاكرتي قط ، وعندما سألت ابن عباس - مرافقي في رحلتي داخل الجزائر - هل إدريس الشرايبي جزائري ؟ أجابني التأثير في بساطة : إنه من المغرب ، والمغرب من طنجة إلى طبرق .. ليس عندنا مغرب وجزائر وتونس وليبيا ، فكلنا مغرب عربي ، كما أنكم كلكم من المشرق العربي ! .

وعشت أياما عظيمة داخل الجزائر . واكتشفت السر الذي لم تستطع فرنسا بهيلمانها اكتشافه : أن فرنسا تستعمر الجزائر العاصمة والشاطيء كله .. ولكنها لم تستعمر الريف الجزائري قط ! هنا في الريف الجزائري ، الناس لا يزالون عربا أقاحا ! اللغة عربية والعادات عربية والسلوك عربي . وفرنسا عندهم هي هؤلاء الجنود الذين يعيشون عند الساحل ! .

قضيت ليلة في منزل رجل عجوز في قرية تنام في بطن جبل في منطقة القبائل . وفي الليل نهض الرجل فذبح لنا شاة وأوقد النار وإنهمك في إنضاج اللحم . وبدا وجهه المغضن على وجه النار كأنه تمثال قديم لرجل من عهد

مضى . وسألني الرجل وقد كشفت ابتسامته عن فم مهجور : هل أنت من مصر ؟ ولما أجبت بالإيجاب ، قال : زرتها مرة سيرا على الأقدام ! سألته : وكم عمرك الآن ؟ قال : ثمانون أو أكثر .. لأدرى على وجه التحديد . قلت : لقد سمعت عنك ثناء كثيرا من رجال الثورة ، فما رأيك في الثورة ؟ سرح بعض الوقت ، وقال : الثورة ؟ .. لقد تأخرت كثيرا ، والسبب أن ثوارنا في الماضي كانوا يتجهون نحو المدينة ، ولكن المدينة كانت قد فسدت ، أفسدها المستعمرون أنفسهم ، ولو أنهم كانوا اتجهوا الى الريف لقامت الثورة منذ زمن بعيد . ولكنها على العموم اشتعلت الآن ، والسبب أنهم اتجهوا الى الريف ، لأن الريف كان مستعدا دائما للثورة ، ولم يكن ينقصه إلا الإشارة لبدء الثورة . ولكنها بدأت الآن ، ولذلك أنت هنا معنا ، ولولاها لما وقعت أعيننا عليك ، لأن الملاعين فصلوا الريف عن المدينة ، وفصلوا الجزائر كلها عن المغرب . ولكن كل ذلك كان في حكم المستحيل ، لأنك لا تستطيع أن تعبر البحر على بسكليت ! .

وعشت في جزائر الثورة أربعة عشر يوما أنقل خطواتي في حذر ، ففي كل شبر من الأرض سقط شهيد . ولكن الأيام القليلة التي عشتها مع الثوار كانت كافية لإقناعي بأن عالم الجزائر القديم سينهار حتما على رؤوس أصحابه ، وأن عالما جديدا يطل برأسه من تحت الأنقاض ، ويشق طريقا في بحر من دماء الشهداء ، ويرنو بعينيته نحو المستقبل رغم العواصف الشديدة المحملة بالمشاكل والمآسى والخراب ! .

والحمد لله لأن العمر امتد بالعبد الله حتى قدر لي أن أدخل الجزائر من أبوابها الشرعية . لقد انتصرت الثورة لأنها قامت لتنتصر ، وقامت في الجزائر حكومة وحكومة وحكومة ثالثة . وفي ظل الحكومة الأولى استولى على حكام الجزائر بعض المتصرين ، يهود على موارد . واستطاع هؤلاء أن يفتحوا دكاكين للنضال على الطريقة الثروتسكية المهلبية ، ويامه القمر ع الباب !! وفي أول عيد من أعياد ثورة الجزائر ، تصورت أن العبد الله سيكون من بين المدعوين ،

ولكن الذى حدث أنهم دعوا جميع أهالى حى شبرا وجميع المناضلين فى تنظيم ( زمش ) ولم يوجهوا الدعوة للعبد الله . أنا ؟! الذى كان أول صحفى مصرى يدخل جزائر الثورة ، ويكتب عنها حلقات يومية نشرت بجريدة الجمهورية فى عام ١٩٥٦ . ثم أصدرت كتابا عن الثورة الجزائرية بعنوان ( أرض اللهب والدم ) ، وكتب مقدمة الكتاب عمنا الكبير محمد عودة . ثم كتبت مسرحية عن ثورة الجزائر اسمها ( فيضان النبع ) قدمتها فرقة المسرح الحر ، واضطلع بأدوار البطولة فيها العبقري الراحل صلاح منصور ، والفنان على الغندور ، والفنان أحمد سعيد .. رحمة الله عليه ، والفنان عمر عفيفى طيب الله ثراه . ياخيبه النظم العربية حين تقع فى أيدى النصابين ويتوع الثلاث ورقات . وللأسف الشديد كان هؤلاء النصابون من مصر . صحيح أنهم ليسوا مصريين ، ولكنهم عاشوا حياتهم كلها فى مصر ، وناضلوا فى مصر ، ودخلوا السجون أحيانا فى مصر ! .

وأقسمت أن أزور الجزائر المستقلة ولكن دون دعوة ، وأن أذهب الى تلمسان الجبل . وبالفعل ذهبت الى الجزائر ، وليتنى ماذهبت ! كنت قادما من قلب إفريقيا فى طائرة خاصة تحمل وفدا مصرىا عالى المقام ، وحطت الطائرة فى الجزائر ، فاستأذنت وأخذت حقيبتى ونزلت . وعشت فى الجزائر أسبوعا فى حالة اندهاش دائم . كنت أود أن أغنى على كل شبر من الأرض وأبوس التراب . وعندما حان وقت الرحيل ، ذهبت إلى المطار فى صحبة الأستاذ مهابة مستشار مصر الصحفى حينذاك ، ووضعت حقائبى فى الطائرة المتجهة إلى باريس ، وودعت المستشار مهابة ، وصعدت سلم الطائرة لأسمع صوتا ينادينى من الخلف يأمرنى بالعودة مرة أخرى إلى المطار . واكتشفت أننى مطلوب للتفتيش تفتيشا ذاتيا . وفعلوا بملابى كل مايشتهون : مزقوا ياقة قميصى وبطانة جاكيتى وثنية بنطلونى . كان واضحا أنهم يبحثون عن ورقة أو خطاب . وعندما انتهوا من التفتيش كانت الطائرة قد غادرت المطار إلى باريس . واتصلت بالسفير المصرى فى الجزائر الذى جاء على عجل إلى المطار . ثم جاء

المستشار مهابة أيضا . ثم جاء مدير المطار ، وراح يكرر نفس العبارات ( القرعة ) التى يجيدها رجال الأجهزة فى شرق البحر المتوسط : فالمسألة كلها غلطة ، وسوء فهم ، وهو يعتذر ، ونحن نقبل الاعتذار . وغادرت الجزائر فى اليوم التالى الى باريس .

وبعد خمسة أيام من وصولى إلى فرنسا ، عرفت السر وراء تفتيشى فى المطار . فبعد خمسة أيام بالضبط من وصولى إلى باريس ، سقط نظام الرئيس بن بيللا ، وقام نظام جديد برئاسة الراحل بومدين . ويبدو أنه خلال الشهر الأخير من حكم بن بيللا لم يكن هو الذى يحكم الجزائر بالفعل . ويبدو أن الأجهزة التى كانت تأتمر بأمر بومدين قد ارتابت فى العبد لله لحظة نزولى من الطائرة المصرية ؛ فهى طائرة خاصة ، وعلى متنها وفد مصرى على مستوى عال ، ولا بد أن كل ركابها من رجال الأجهزة حتى وإن تخفوا فى عباءة الصحافة . ولما كان بن بيللا متهمًا بأنه عميل لعبد الناصر ، فلا شك إذن فى أننى فى مهمة من أجل بن بيللا ولمصلحة عبد الناصر . ولقد تصوروا أننى جئت أحمل رسالة لبن بيللا ، وأكد هذا الظن لديهم أننى التقيت بعبد الرحمن شريف مدير مكتب بن بيللا ، كما أن مسئولا مصرىا من السفارة المصرية كان فى وداعى عند الرحيل .

إلى هذا الحد تمضى الأمور فى العالم العربى ، وإلى هذا الحد تنحدر الأمور أيضا . يالها من ذكريات حزينة وأليمة تركتها زيارتى الأولى للجزائر المستقلة . ولكنها لم تضعف إيمانى لحظة بأن مافعلته مصر من أجل الجزائر كان هو ماينبغى أن تفعله بالضبط . لقد أدت مصر واجبها من أجل تحرير الجزائر . الهدف كان تحرير الجزائر وبعد ذلك كل شيء يهون ! .

ولقد زرت الجزائر بعد ذلك أكثر من مرة ، وكلها تمت من جيبى الخاص أو على نفقة الجرائد التى كنت أمتثلها . ولم أقبل دعوة لزيارة الجزائر قط .. ولكى أكون دقيقا وأمينا ، لقد قبلت الدعوة لزيارة الجزائر عندما ذهبت إليها فى المرة الأولى ، ودخلتها مع ثوار الجزائر . ومازلت أحفظ أجمل الذكريات لهؤلاء

الرجال البواسل الذين رافقوني في رحلتي الأولى إلى أرض الشهداء ، كما كان مسعود وإبراهيم حرشي و ( سي ) إدريس . ترى أين ذهب هؤلاء بعد ذلك ؟ وأين هم الآن ؟ لا أريد أن استشهد بالمثل المعروف عن الثورة ، ومن يشعلها ؟ ومن يستشهد فيها ؟ ومن يجني ثمارها ؟ المهم أن الجزائر قد تحررت واستقلت وصارت جوهرة ثمينة في تاج العروبة . ولذلك هتفت من أعماقي وأنا أغادر الجزائر في آخر زيارة : « يارب الهمة ، الحمد لك ، والشكر لك ، لأنك وفقت جيلنا في إنجاز هذه المهمة » !.

## وايوثير قال لارياب

عندما دخلت تونس أول مرة ، أدركت السبب الذي من أجله اختارتها قبائل بني هلال للإقامة فيها خلال التغريبة . فتونس الخضراء هي جنة الشمال الافريقي ، وأهلها أكثر العرب ليانا وأشدهم عذوبة . والعبد لله دخل تونس ذات صيف حار ملتهب ، خلع فيه بورقيبة الباي وجلس على دكة الحكم في تونس . والحق أقول إن الباي لم يكن في حاجة إلى من يخلعه ؛ فهو مخلوع منذ البداية ! وعندما كان جالسا على مقعده ، لم يكن في استطاعته ولا في سلطته نقل فراش من مكتبه ، كان في استطاعته فقط أن يتجول كما يشاء في الحديقة ، أما خارج سور الحديقة فلم يكن له حول ولا طول ! .

وكان بورقيبة زعيماً تقليدياً خارجاً من صفوف الشعب . كافح وناضل طويلاً ، وتشرّد في داخل تونس ، ثم نفى في الأرض . وكان من خلفه حزب

شديد التنظيم صارم الانضباط. وكان في استطاعة بورقيبة من خلال الحزب أن يشعل النار في تونس بإشارة، وأن يخمد النار إذا أراد بإشارة! ولكن عيب الحزب الدستوري التونسي الجديد، أنه كان جديد التشكيل، ولكنه ليس جديد الأفكار. فاكتمى بوحدة المغرب العربي بديلا عن وحدة العالم العربي، وقنع بالاستقلال التام، دون أن يقترب من المشكلة الاجتماعية. ولم تكن للحزب أيولوجية، ولكن مجرد أفكار هائمة، وخطوط غير واضحة، وكلها مأخوذة ومستمدة من خطب الزعيم وكلماته الخالدة!

ولقد أتاحت لي الظروف أن أرافق الزعيم خلال شهر كامل زار فيه كل شبر في تونس، ولم ينس أيضاً زيارة جزيرة (جالطا)، وهي التي نفاه إليها الفرنسيون خلال سنوات الكفاح. وأشهد أن بورقيبة زعيم جماهيري من طراز فريد، إنه من نفس طينة مصطفى النحاس، مع اختلاف المواقف والظروف. سمعته يخطب في مدينة الكاف على الحدود الجزائرية. وتطرق الحديث إلى نظرية رأس المال. وقال بورقيبة جاداً: «يقولون إن رأس المال هو نتيجة فائض القيمة، وأنا أقول هذا كذب، فرأس المال هو نتيجة التوفير!»، ولم تضحك الجماهير، ولكنها مزقت أكفها من التصفيق، وبحت حناجرها من الهتاف للزعيم الخالد! ولقد كان من الممكن لبورقيبة أن يمضي في طريقه وأن يلعب دوراً في حياة العرب، لو أنه أدرك عمق التغيير الذي طرأ على الأمة العربية بعد الحرب العالمية الأخيرة.. لم يستطع بورقيبة أن يلحظ عمق التغيير الذي أحدثته حرب فلسطين، ولذلك ستجده يعلن عن قبوله لمبدأ إيزنهاور، حتى قبل أن يعلن إيزنهاور تفاصيل مبدئه! وسيهاجم حزب بورقيبة وحدة مصر وسوريا قبل إعلانها، كما أنه جاهر يوماً ما بضرورة عقد الصلح مع إسرائيل. وإن كان إنصافاً للرجل أقول: إن ما دعا إليه بورقيبة، في الماضي، ربما كان أقل مما وصل إليه الحال الآن!

ولكن ما الذي شدنا إلى السياسة في تونس، وكنا نود أن نسير في موكب البشر، وأن ندخل في زحام الناس؟ السبب في الحقيقة هو مؤتمر سياسي

حضرته في صفاقس، وكان هو مفترق الطرق بالنسبة لمستقبل تونس، وأبرز علامة على الطريق. كان المؤتمر ببساطة يطرح خلافاً في الرأي بين بورقيبة ومجاهد تونس آخر هو صالح بن يوسف. وكان الأخير يرى أن قبول الاستقلال الذي تعرضه فرنسا على تونس خيانة للجزائر. وكان من رأيه أن يحمل التوانسة السلاح إلى أن تستقل تونس والجزائر معاً. وكان يعتقد أن الظروف مناسبة للدخول في معركة شرسة وطويلة ضد فرنسا حتى تنهكها تماماً، كما حدث في الهند الصينية. وكان واثقاً من أن (ديان بيان فو) عربية على الأبواب!

وكان بورقيبة يرى العكس تماماً. كان يرى أن نصف استقلال خير من استمرار الكفاح من أجل استقلال كامل. وكان من رأيه أن تونس نصف المستقلة قادرة على حماية الثورة الجزائرية ومدها بالمال والسلاح، محتمية بالعلم الوطني وعضوية الأمم المتحدة! وأطلق بورقيبة عبارته المشهورة: «فلنضع أقدامنا على أي أرض، ثم نمارس من فوقها سياسة الخطوة خطوة». ومن هنا فبورقيبة هو راسم السياسة التي تبناها العزيز كسينجر وطبقها بعد ذلك بثلاثين عاماً في الشرق الأوسط!

وانعقد مؤتمر صفاقس في جو متوتر، ودعيت إليه جميع إدارات الحزب، وتخلف صالح بن يوسف، فقد كان هارباً في الخارج ناجياً بحياته. وبالطبع صفق الحزب طويلاً لبورقيبة، ودعا له بطول العمر! وأشهد الآن أنني خلال المؤتمر كنت في صف صالح بن يوسف. ولكن التجربة أثبتت أن بورقيبة كان على حق. فمن خلال تونس المستقلة استطاع الحكم أن يحمي ثورة الجزائر، وصارت تونس قاعدة للثورة ومقرّاً للثوار. المهم أن مؤتمر صفاقس كان هو الفصل الأخير من مرحلة الحوار بين الثوار. وبدأت مرحلة جديدة بعد المؤتمر، هي مرحلة الحوار بالرصاص. وانتهت هذه المرحلة أيضاً بإطلاق رصاصة على رأس صالح بن يوسف، وهو في غرفته في أحد الفنادق بألمانيا الغربية! ومات سياسي عربي مخلص، اجتهد فأخطأ، وبدلاً من أن يتأب على

خطئه بأجر، أصيب برصاصة في الظلام قضت عليه!.

صفت المياه للحزب الحر الدستوري التونسي وصار هو الحزب الحاكم في بلد الخضرة والسلام. ورفع الحزب شعار (وحدة عرب الكسكى والجلاب). وكانت غلطة لا تغتفر، لأن الحزب قسم العرب إلى أكلة الكسكى وأكلة الفول، وأكلة الكبة والسمك المسجوف، وأكلة الويكا والشرموت!.

وتركت الحزب الحر الدستوري يحلم بحكم المغرب العربي من طنجة إلى طبرق، ونزلت إلى الشارع أشرب الشاي مع شعب تونس حول أسوار جامع الزيتونة، وأدخن النارجيلة في حوارى القصة، وامتشى أفرنجى على شواطئ بوسعيد، وأشرب البوخا في المقاهى المنتشرة على طول جادة الاستقلال! وبهرنى الشعب التونسي بحيويته وذكائه واحترامه الشديد للفن وحبه الشديد للحياة! تعرفت على بنت تونسية تحاول أن تخطو أولى خطواتها في عالم الطرب. سألتني كيف تقابل أم كلثوم وليلى مراد ومحمد عبد الوهاب؟ جلست في ندوة أدبية، وكان الحديث كله يدور حول أحمد أمين وزكى مبارك وطه حسين والعقاد. تناولت العشاء مرة على طاولة في ناد للكرة، وكان الحديث كله عن الكابتن الضيظوى والكابتن الديبة والكابتن صالح سليم. دعاني أحد مشايخ جامع الزيتونة إلى منزله وراح يناديني طوال السهرة بـ (الحاج)، فلما قلت له بأننى لم أتشرف بعد بحمل هذا اللقب، ولم أسعد بعد بزيارة الأرض المقدسة، أجابنى الرجل الطيب: «الأرض المقدسة تبدأ عندنا من حدود مصر».

وعشت في صفاقس أياماً في ضيافة الشيخ أمين حسنين، وهو مطرب ومقرئ مصرى شهير ذاع صيته في عشرينات هذا القرن، وهاجر إلى تونس قبل الحرب العالمية الأخيرة. وخلال احتلال ألمانيا لتونس، كان ثعلب الصحراء روميل يتردد عليه في منزله ليستمع إلى فنه العظيم، وأهداه علبة ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ليحتفظ فيها بالنشوق. ورأيت هدية روميل مع الشيخ أمين وكان يعتز بها اعتزازاً خاصاً، كما كان فخوراً بصداقة

صاحبها، وقال لى وهو يتنهد أسفاً: كان روميل يحب الإسلام، وكان فى سلوكه يتشبه بالمسلمين الصالحين!! كان الشيخ أمين غارقاً لأذنيه فى حب تونس، وما الفرق بين تونس ومصر؟ أو بين تونس والعراق؟ أو بين تونس والحجاز؟ لا شيء فى واقع الأمر. وأدركت سر بيرم التونسي الذى اقترن أبوه التونسي بامرأة مصرية اسكندرانية، فأنجب أعظم زجال مصرى نطق باللغة العامية المصرية على طول الزمان! هؤلاء التوانسة الأحباء هم أحفاد بنى هلال، حلوا ضيوفاً عليها بعد تغريبة شهيرة خرجوا فيها من الجزيرة العربية، قاطعين الطريق إلى تونس عبر بغداد وسر من رأى والموصل ودمشق وسهل طبرية والقدس والخليل وغزة والقاهرة والاسكندرية وبنى غازى وطرابلس. وعبر الطريق أقاموا وتزوجوا وتناسلوا، وأخذوا نسلهم معهم، خليطاً من أبناء قحطان المنتشرين على الأرض العربية. ولذلك ستجد التواشيح التونسية، خلاصة فن العرب جميعاً. وستجد فى التونسي خصال العربى القديم، رفته وشجاعته ودهاءه وسعيه الذى لا يكل! ويا ميت صلاة النبى على التونسي إذا صادق، وعلى التونسية إذا أحببت! سيعطيك الصديق حياته، وستعطيك الحبيبة كل ما أودع الله من أسرار فى بنت حواء، ومن أخصص القدم الى مفرق الشعر!.

وباميت حلالة على تونس العاصمة كأنها برج بابل. فيها شوارع كفرنسا وحوارى ولا حوارى بولاق الذكور. وفيها ناطحات سحاب كنيويورك وأكواخ كأكواخ الزوج. وفيها نسوان ماشية فى الشارع (زلط وملط)، ونسوان تخرج الشارع مختبئة فى خيمة، وكأنهن يعشن فى أيام عمرو ابن كلثوم! وفى تونس مزارع ولا مزارع الدلتا، وصحراء ولا صحراء العلمين. وفيها مطاعم ولا مطاعم مكسيم، وجوعى ولا جوعى المنطقة التى على حدود بنجلاديش والهند! ولكن أعظم ما فى تونس هو احتفاظها بالطابع العربى الأتلىسى فى العمارة وفى الموسيقى وفى المطبخ. وكل تونسى فنان ولو كان يعمل فى كنس الشوارع. وكل تونسية مطربة ولو كانت تغسل الملابس فى البيوت.

والبنت التونسية عينها جامدة وشخصيتها أجمد، وهى عنيفة كالصخرة ورقيفة كخصن البان، ولكن الرجل التونسي (مزاجاتلى) وكل ساعة بحال. هو فى الكرم كحاتم، وفى السهر كنديم فى بلاط هارون الرشيد، وفى الخصومة أشرس من نمر الغاب! وهو الوحيد ربما فى المغرب العربى الذى يحب النكتة المصرية ويفهمها ويضحك على أى نكتة عمال على بطل. والتاجر التونسى هو أشطر تاجر فى المغرب العربى. وهم يجيدون أشغال الفندق والسياحة وجذب الغرباء. وهم فى المغرب العربى كلبان فى المشرق العربى، ولكن هناك فرقاً، فالتونسى فيه كل مزايا اللبائى وليس فيه أى شيء من سلبياته. والسبب أن التونسى لا يعرف الجبال، ولكنه يعيش فى سهول خضراء وفى صحراوات معدودة.

وميزة تونس أيضاً أن الحزب الحاكم استطاع أن يفرض الأمن فى كل مكان. كما أنها تخلو تماماً من أى مراسم فى دوائر الحكومة. وتستطيع فى أى وقت أن تقابل كاتب الدولة (الوزير) حتى بدون أسباب، يكفى أن تدخل مكتبه وتشرب الشاى وتنصرف فى سلام! وبورقية هو الزعيم الوحيد الذى يتحدث مع شعبه مرة كل أسبوع من خلال التليفزيون، حديثاً ليس فى السياسة، ولكنه حديث شخصى كأنه جالس مع أقرب أصدقائه فى البيت. وهو يحكى لهم عن خلافاته الزوجية، وأسباب القطيعة بينه وبين ولده الحبيب، وعن أكلة البيض التى سببت له الإسهال! وأحياناً يصف لهم دواء جربه هو شخصياً وينصحهم باستعماله، باعتبار: اسأل مجرب ولا تسأل طبيب.

والنساء فى تونس لهن حظوة ولهن حضور فى المجتمع، ولهن فى السلطة كلمة ومكان. وكانت السيدة الأولى وسيلة قبل طلاقها هى مصدر جميع السلطات!.

والحق أقول إننى عشقت تونس من أول نظرة، ولكن أحوال السياسة التعبانة حرمتنى من زيارتها منذ ذلك التاريخ، فلم أشاهدها مرة أخرى منذ عام ١٩٥٦. ولكن تونس الخضراء بالرغم من كل هذه السنين لم تذهب صورتها

من مخيلتى. فقد قضيت فيها وقتاً طويلاً وطيباً، وقطعتها من شاطئ البحر وإلى عمق الصحراء. وأدركت وأنا اتسكع فى ربوعها، ومن خلال أشجار النخيل والتين والزيتون وبساتين الكروم، كيف نشأ وترعرع أبو القاسم الشابى، أبرز شعراء عصر الرومانسيين العظام. ذلك العصر الذهبى الذى أنجب ستة من فحول الشعراء، أمثال: على محمود طه، وأبو القاسم الشابى، وناجى، وأحمد فتحى، وعبد الرحمن الخميسى، وكامل الشناوى، ومحمود حسن اسماعيل. وبالرغم من جديد صلاح عبد الصبور ونزار قبانى، إلا أنهما يعتبران امتداداً له وبعضاً من بقاياها!!.

وتركت تونس ذات صباح خريفى جميل، وتركت قلبى هناك مع بنت من بنزرت على خدها شامة وعلى (خشمها) وشم. البنت التونسية كانت تقرض الشعر أحياناً، وتضرب على العود أحياناً، وتغنى دائماً حتى وهى تصرخ، وهى تبكى، حتى وهى صامئة وصائمة عن الكلام! وكان العبد لله شاباً فى شرح الشباب، وللشباب فنون وجنون أيضاً.. ما أحلى أيام الشباب! وودعت تونس إلى لقاء، ولكننا لم نلتق قط، قاتل الله السياسة، فرقت بينى وبين تونس، وفرقت بين تونس وجيرانها، ولم يبق من وحدة الكسكى والجلاب، إلا أطباق الكسكى، وقماش الجلاب!!.

وقلت : فليكن مايكون ! وماالذى سوف يكون سوى منعى من الدخول ، أو ضربى علة عند الحدود ، أو حبسى بضعة أيام فى سجون ليبيا . وأيا كان الأمر ، فستكون هناك قصة تصلح للكتابة وحدوته تحفظ فى متحف الذكريات . ثم إننى فى النهاية سأتمكن من إلقاء نظرة على قطعة من أرض العروبة ، فمن يدري قد يشاء حفظنا التعس أن نعيش ونموت دون أن ندخلها قط!.

ووقفت أمام عسكرى الجوازات الليبى ، وراح يدقق فى جواز سفرى ثم قال مندهشا : ولكنك لا تحمل تأشيرة دخول ؟ ! وقلت للعسكرى بركة متعمدة ، وبأدب مبالغ فيه : إننى فى الحقيقة لا أقصد زيارة ليبيا ، ولكنى مجرد عابر سبيل فى طريقى إلى مصر ، فإذا أردت منحنى تأشيرة لمجرد المرور فأنا شاكر فضلك ، وإذا كان هذا مستحيلا ، فسأعود أدراجى من حيث جئت ، وكفى الله المؤمنين القتال ! وقال العسكرى الليبى ووجهه يضىء بالحب : إذا كانت مصر بلادك فهذه أيضا بلادك ، مرحبا بك فى أرض ليبيا وإلى أى مدى تشاء . وختم الرجل الطيب جواز سفرى ، زيارة لمدة شهر . ياسبحان الله ! كل الاحتياطات التى اتخذتها حكومة جلالة الملك وقناصل جلالة الملك ومخابرات جلالة الملك ، أتاح بها هذا العسكرى العربى الطيب فى لحظات ! أى انفصال كامل وكلى بين مايدبر فوق فى العلانى ، فى قصور الحكام ومكاتب المتسلطين ، ومايجرى فى الشارع مع جماهير الناس الطيبين ، التى تدرك بالغريزة أنه مادامت مصر بلادى فليبيا أيضا بلادى ، ومرحبا بك فى بلادك ... وإلى أى مدى تريده .

وكما موسى كلم الله ، جئت ليبيا على قدر ودخلت المدينة أسعى على حذر ، ولكن أين هى المدينة ؟ الشاطئ مهجور إلا من أشجار النخيل ، والشوارع خالية إلا من بعض عساكر الأمريكان ، وحوانيت مفتوحة ولكن بلا حركة فى الداخل ، وعدد من النساء يقطعن الشارع وقد ارتدين خياما متنقلة حتى لاتقع عليهن عين بشر ، وبعض الرجال فى ملابس رومانية من عهد

## الأرض الخراب

ودعت تونس كلها ، ويممت وجهى شطر الحدود الليبية ، وكانت انتقاله قصيرة فى المسافة ، لكنها كانت نقلة رهيبه فى الزمن . فبينما عبرت الحدود فى ساعة ، وجدت نفسى أعود القهقرى ثلاثة قرون على الأقل . ولقد دخلت ليبيا بمعجزة ، فقد رفضت جميع سفارات الملك إدريس منحنى تأشيرة دخول .. دخت دوخة الدجاجة المنصابة ، وأنا واقف على باب السفارة السنوسية فى القاهرة . وربطت أياما أمام سفارات ليبيا فى عواصم أخرى كثيرة ، ولكن لا من شاف ولا من درى ، كأن أى مواطن مصرى بالنسبة إلى مملكة السنوسى - رجز من عمل الشيطان فاجتنبوه يأولى الألباب ! وكان الشلحى الموجود فى القاهرة اليوم يرسم خرائط السد العالى الذى قررت حكومة ليبيا إقامته على الحدود ، ليمنع اتصال القطرين ! وكانت ليبيا - وقتئذ - ( حلال للطير من كل جنس ، حرام على بلبله الدوح ! ) . وبالرغم من ذلك توكلت على الله وتوجهت نحو الحدود الليبية ،

قيصر . ثم لا شيء بعد ذلك . لاشيء على الإطلاق إلا السكون والصمت !  
وقبعت فى صالة فندق المهارى على شاطئ البحر اطلع إلى الوجوه التى  
حولى ، وكلها وجوه خواجات عبرت البحر من أوروبا ، بعضهم خبراء وأغلبهم  
جواسيس وعملاء ووسطاء ، والكل مثلى قابع فى مكانه فى هدوء يلفه السكون  
والصمت ! ولكن ولدا ليبيا يعمل صحفيا لا أذكر أين ، اسمه الفيتورى ،  
ولا أذكر اسمه الأول ، جاءنى رغم كل شيء ، وخرجت معه ذات مساء إلى  
قاعدة هويلس ، واستطعت أن التقط صورة لمواقع الصواريخ المصوبة نحو  
مصر . قلبى مع العسكرى المسكين الذى سمح لى بالدخول ، لابد أنهم أذابوه  
كقطعة الصابون أو نشره كروح خشب بلوط . مع الاعتذار لأخيها على بلوط .

وقضيت فى ليبيا أسبوعاً أحاول أن أنفذ إلى داخلها دون جدوى . صحيح أننى  
دخلت الأرض الليبية ، ولكنى لم أدخل ليبيا . وكيف أستطيع وليبيا نفسها غير  
موجودة وليس لها حضور ؟! الحضور كله لبطانة الملك السنوسى ، وتستطيع  
أن تراها فى صالة قمار فندق البحر المتوسط . والحضور كله لضباط القاعدة  
الأمريكية ، وتستطيع أن تراهم فى كل وقت . والحضور كله لرجال الأمن وهم  
وراءك على الدوام . وفيما عدا ذلك لا حضور لأحد على الإطلاق . الشعب  
الليبي خلف أسوار السكون والصمت يأكل المكبكة والبازين ، وضباط الجيش  
الليبي الوطنيون نصفهم فى لندن بدعوى العلاج أو الدراسة ، والنصف الآخر  
فى ليبيا تحت الرقابة . ومن الذى يراقب ؟ مخابرات أمريكا وبريطانيا وفرنسا !  
فكل منها ثلث مساحة ليبيا على وجه التقريب !.

ولم أستطع أن اتحدث مع واحد ليبي ، أو أدخل بيتا ليبيا على الإطلاق !  
حتى المصريين الذين كانوا فى ليبيا وقتئذ ، كانوا جميعا - وبلا استثناء - هاربين  
من حكم عبد الناصر ، وكانت الغالبية العظمى من الإخوان المسلمين ، وقلة  
منهم من رجال العهد الملكى الذى قضت عليه ثورة يوليو ، وقد استطاعوا  
الإفلات من مصر بثرواتهم وعاشوا فى طرابلس عيشة أقيال الهنود ! حتى  
المتاجر والمخازن لا ترفع لافتات عربية ، وإنما كل اللافتات مكتوبة باللغات

الأوروبية ، وخيل إلى أننى أسير فى شارع من شوارع روما أو لندن أو  
باريس . وثروات الشعب العربى فى ليبيا تنهب بلا حساب ، ودود أوروبا  
الخبير يمص دم الشعب بلا رحمة ، وتحول الشعب فى النهاية إلى جثة هامدة  
بلا حراك ، كل ( سلوته ) فى الحياة احتساء أكواب الشاى فى النهار ، وتسكين  
الدماغ فى الليل بأنفاس الحشيش المعطرة أو أكواب البيرة المثلجة ، والاستغراق  
فى أحلام سعيدة عن النفط الذى بدأت روائحه تملأ الخياشيم فى أنحاء البلاد .

وكما حدث فى أمريكا عند ظهور الذهب ، تدفق الآلاف من الليبيين إلى  
المدينة ، وقد هجروا القرى والحقول وتركوا قطعان الماشية تسرح بلا رعاة فى  
البرارى ، وجاء الجميع تسبقهم صرخة مدوية : النفط . ومطلبهم الوحيد :  
الوظيفة . وبدلا من أن تزجرهم الحكومة ، فعلت العكس ، وشجعت المهاجرين  
على الإقامة فى المدينة ، وألحقهم جميعا بمهن غير منتجة ، فراشين فى  
دواوين الحكومة . وفى بعض المدارس فى طرابلس بلغ عدد المدرسين خمسة  
عشر مدرسا ، وعدد التلاميذ مائة طالب ، وعدد الفراشين مائة وخمسين  
فراشا . وحتى هذا العدد الهائل لم يكن يؤدى عملا ما فى المدرسة ، ولكنهم  
كانوا يكتفون بالجلوس فى حلقات فى فناء المدرسة يشربون الشاى أحيانا  
وينامون أغلب الأحيان ، وفكر عدد منهم فى زيادة دخله فسجل نفسه فراشا فى  
أكثر من مدرسة وفى عدد آخر من الدواوين .

وبدأت ليبيا بعد ذلك التاريخ تستورد أكلها من الخارج ، حتى الفجل !  
ولكن .. لاشيء يهم مادام الملك أديس مهتما بمزرعة الخيول الملكية ، والأمير  
الرضا يتأمل النجوم من شرفة قصره المطل على البحر المتوسط ، ووزير  
الداخلية صوفي - الذى كان يعمل محصلا فى ترام الرمل فى الإسكندرية -  
يسيطر على الأمن فى الشارع ، ويعد أنفاس الناس فى البيوت ، ويحرس  
منشآت البترول من أن يقترب منها شبح كلب شارد ! ولقد كانت المؤامرة كبيرة  
ورهيبة ، ولم يكن فى ليبيا كلها من يستطيع منعها . وكانت الخطة جهنمية  
وهى : إفراغ الأرض الليبية من فلاحيتها وإلحاقهم بوظائف فراشين فى



الحكومة حتى لا يكون هناك أدنى ارتباط بين الليبي وأرضه ، وحتى يسهل بعد ذلك اقتلعه من الأرض الليبية كلها . وكان الملك السنوسى مشغولا بخيوله ، والأمير الرضا يكتفى بالتأمل ولسان حاله : رضا لمن يرضى ! والحكومة متواطئة مع الأجنى ، وأعضاء الحكومة ليس لهم فى ليبيا شئ يخافون عليه ، وكل ما يملكونه فى ليبيا أودعوه خزائن خارج الحدود .. المهم أن تستمر الأحوال على هذا النمط أطول وقت ممكن ، والمهم أن يستنزفوا من دم الشعب أكبر كمية ممكنة !.

ولذلك لم يلحظ أحد شيئا مريباً ، وطائرات فرنسا وانجلترا تحتشد فى قاعدة العظم على حدود مصر ! ولم يستنكر أحد من السادة فى ليبيا ما حدث بعد ذلك عندما قامت هذه الطائرات بضرب القاهرة أيام العدوان الثلاثى ! بل احتفل بعض الوزراء وبعض الحكام فى ليبيا بانتصار الحلفاء على (العدو المصرى). غير أن شعب ليبيا العربى كان له موقف مختلف : هبت الجماهير فى حماسة أصيلة تحرق كل شئ يملكه الأجانب فى بنى غازى وطرابلس ، وحاصر الناس أحياء اليهود فى المدينتين ، وهاجموا القواعد العسكرية والسفارات الأجنبية وأشعلوا النار فى العلم البريطانى والعلم الفرنسى ، وقتلوا عددا من جنود الاحتلال كانوا ينتزهون على الشاطئ فى اللحظة ذاتها التى سكنت فيها إذاعة القاهرة! وهبت الحكومة هى الأخرى ف اتخذت إجراءات مضادة : ألقت القبض على الكثيرين ، وعوضت الأجانب عن ممتلكاتهم التى احترقت ، واعتذرت عن أرواح ضحايا جنود الاحتلال التى أزهقت . وزيادة فى احتياطات الأمن ، منعت الحكومة إذاعة نشيد ( الله أكبر ) - وهو النشيد ذاته الذى سيكون نشيد ليبيا الوطنى فى مستقبل الأيام . وزيادة فى الأمن والأمان ، استوردت حكومة السنوسى عمالا من ايطاليا ومن مالطة ومن البرتغال ومن تشاد ، ولكنها منعت مرور عمال مصر عبر الحدود ، وقامت بترحيل من كان موجودا منهم فى ليبيا .

وخلال السنوات الست التى تلت العدوان الثلاثى ، تحولت الأراضي

المزروعة إلى أراض بور ، وأصبح الجبل الأخضر جبلا من التراب والصخور ، ونفقت قطعان الماشية ، التى كانت ترعى وحدها فى الخلاء . وحدثت معجزة لا أظنها حدثت قبل ذلك فى أى مكان: ليبيا التى كانت تصدر الضأن إلى الخارج ، أصبحت ولأول مرة تستورد اللحوم من تركيا ومن ايطاليا والصومال . وتحولت ليبيا بفضل الحكم الأحمق إلى ثلاث دول : دولة فزان وتحكمها فرنسا ، ودولة بنى غازى وتحكمها انجلترا ، ودولة طرابلس وهى تحت الحكم الأمريكى . وخيل للمراقبين فى كل أنحاء العالم أن ليبيا قد ماتت ، وأن الشعب الليبى فى غفوة مثل غفوة أبناء الرقيم . وأطلق الجنرال لاکوست - الذى كان يحكم الجزائر - نكتة شهيرة عن ليبيا عندما سأله صحافى فرنسى عن مدى خطر الثورة العربية الآتية من الشرق على الوضع فى الجزائر .. ضحك لاکوست السمين وقال : « بيننا وبين الشرق العربى أرض ميتة ، وهى موصل غير جيد للحرارة ، وهى كفيلة بقتل كل شئ يعبرها أو يقيم عليها : الأشخاص والمبادئ والأفكار ، ونحن نعيش هنا خلف ساتر يحمينا ويوفر لنا الأمان ! » . وكانت ليبيا هى الأرض الميتة التى عناها الجنرال لاکوست ، وهى عبارة فيها الكثير من الواقع والكثير من سوء الفهم . فقد كان لاکوست ينظر هكذا إلى الحكومة وإلى السلطة ، لكن نظره الضعيف لم يستطع أن ينفذ إلى الأعماق . وتحولت ليبيا إلى أضحوكة فى نظر الجميع ، لدرجة أن أحد الصحفيين العرب عندما قرأ « انقلاب عسكرى فى ليبيا » ، ظن أن عسكريا ليبيا قد انقلب على الأرض أثناء سيره فى الطريق .

ولكن رغم الماء الأسن والظلام المخيم والموت الذى يرفرف على رهوس الجميع ، ذهبت إلى سوق طرابلس واشترت بعض الأغراض من تاجر ليبي ظل نائما على جنبه وأنا أفتش فى المحل عما أريد . وعندما حاولت أن أنقده الثمن ، اكتشف الرجل أننى مصرى وأننى زائر فى طريقى إلى وطن أبو خالد ، وأقسم الرجل ألف مرة أنه لن يتقاضى أى ثمن . وأكثر من هذا ، أقسم ألف مرة أن أشرب معه الشاي قبل أن أغادر المحل . وقبلت شاكرا اعتقادا منى أن الشاي

فى طرابلس مثل الشاى فى أى مكان على ظهر الأرض . وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر عندما بدأنا حفلة الشاى . وعندما خرجت من المحل كانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وكان الأخوة الليبيون لم ينتهوا من شرب الشاى بعد . فأنت تبدأ بالشاى الأسود ، ثم الشاى الأحمر ، ثم الشاى الباهت ، ثم تعود إلى الشاى الكحلى ، ثم الشاى الأزرق ، ثم الشاى الوردى ، ثم الشاى الأحمر ، وهكذا تتذوق كل الألوان . ومع كل لون حكايات تروى وأحاديث تقال ، ولكن لا أحد يسمع لأن الجميع مشغول بشرب الشاى .

ولقد تركت ليبيا ذات يوم من ١٩٥٧ وأنا واثق أنني لن أعود . لقد كان كل شيء يوحى بأن ليبيا قد ضاعت إلى الأبد . وإذا كانت الجزائر قد ضاعت بفعل فرنسا وفلسطين ضاعت بعدوان إسرائيل ، فليبيا ضاعت بسبب خيانة بعض حكامها . ولكن لأن الليالى دائما حبلى ، ولأنها أيضا تلد كل عجيب ، حدث عكس ماتوقعه الجميع . وذات صباح من عام ١٩٦٩ وقعت الواقعة فى ليبيا . ولم يكن بيان السلطة الجديدة بيانا للثورة بقدر ما كان تأشيرة دخول للعبد لله للعودة إلى ليبيا . وكان مجيء الثورة هو هدية الأقدار للأمة التى انتكست فى حرب ١٩٦٧ ، وكان علامة على أن هذه الأمة قد تنام أحيانا ولكنها لاتموت ، وأنها قد تمرض أحيانا ولكنها قادرة دائما على المقاومة ، وأنها أقوى من الشلل ومن العجز .

وإذا كانت رحلتى الأولى إلى ليبيا تمت فى ظل الملكية ، فإن رحلاتى إلى ليبيا بعد ذلك تمت فى ظل الثورة . والغريب أننا نحن العرب نصنع نفس الأشياء فى ظل جميع الأنظمة المختلفة ، ولذلك يخيل للعبد لله أحيانا أننا نحن العرب لا نعرف إلا نظاما واحدا للحكم ، ولكننا نطلق عليه عدة أسماء . نظامنا العربى من واقع التجربة المرة هو نظام ( كبير العائلة ) الجالس على الدكة ، فى يده اليمنى سيف وفى يده اليسرى كيس منتفخ بما فيه من ذهب وفضة . ونحن نطلق على هذا الكبير الجالس على الدكة أحيانا لقب ملك ، وأحيانا لقب شيخ ، وأحيانا لقب رئيس . ولكن الألقاب فى بلادنا ليس لها مدلول وليست ذات مغزى ،

فجوهر الحكم واحد فى ظل جميع الأنظمة وتحت جميع المسميات فى عالمنا العربى . هى قبائل سياسية ، الأمر والنهى فى يد شيخ القبيلة ، وليس لأفراد القبيلة إلا السمع والطاعة وكتابة التقارير اليومية . والخلاف بين أحزابنا ليس خلافا فكريا ولكنه ثأر ، ولايضيع ثأر وراءه مطالب . ولذلك أيضا طبقنا الشيوعية بأسلوب عربى ففشلت ، وطبقنا الاشتراكية بأسلوب عربى ففشلت ، وحاولنا تعريب الرأسمالية ففشلت . والسبب هو نظامنا العربى الذى نطبقه فى كل مكان من بلاد العرب ، والذى يجب ماقبله ويلغى مابعده ! .

ولقد ذهبت إلى ليبيا الثورة أكثر من مرة . وفى أول مرة تعرفت على الثوار وصدمت ! مجموعة شباب ثوار أكثر سذاجة من عمى الشيخ عطوة مجذوب بلدنا وأكثر طيبة من خالتي ، لديهم أحلام وليس لديهم برامج ، وعندهم نية وليس عندهم قوة . وفى المرة الثانية تضاعفت الصدمة عندما اكتشفت أن الثورة عندهم تعنى الفوضى . وفى المرة الثالثة قررت أن أغادر ليبيا وألا أعود إليها . ولكن بين الزيارة الأولى والزيارة الأخيرة وقعت مصائب وحدثت أهوال وجرت أحداث ، ولذلك سنرجى الحديث عنها ؛ لنروى لكم الوقائع بالتفصيل ومع التحليل .

وأنا، ودخلنا حجرة القذافي، ولم أصدق أنها حجرة الرجل الذى قلب الأوضاع فى ليبيا، وطرد الملك السنوسى منها، وجلس مكانه فوق القمة العالية. لم يكن فى الحجرة شئ إلا سرير عادى من سراير المستشفيات، وبجانب السرير منضدة صغيرة مدهونة بطلاء أبيض، وعلى المنضدة إناء زجاجى به ماء، وكوب صغير به عدة ورود، وجهاز راديو صغير، ثم لا شئ بعد ذلك. وكان القذافي نفسه يتمدد على السرير، مرتدياً بيجامة عادية مقلمة، وقدماه عاريتان. وعندما أبصرنا قهقهه عالياً، ورفع يديه كأنما يهم باحتضان الهواء.

## والتفاح دواء !

ولقد قدر للعبد لله أن يعود إلى ليبيا بعد الثورة، وكانت المرة الأولى خلال زيارة عبد الناصر لها. وكانت الثورة لا تزال بكراً، وأفق الثوار لا يزال محدوداً. كانوا ثواراً لا يزالون، لم يتحولوا بعد إلى رجال حكم.

وأذكر أننى كتبت بالتفصيل عن زيارتى الأولى للقذافي، وهو نزيل مستشفى طرابلس العمومى لإجراء عملية الزائدة الدودية. ولم أكن وحدي حين ذهبت إليه، ولكنى ذهبت مع الزميل الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين.

واكتفينا فى البداية بتسجيل أسمائنا فى سجل التشريعات، وعندما استدرنا عائدين، وقبل أن نصل إلى باب الخروج، اكتشفنا أن هناك من يجرى خلفنا، ينادى علينا بأعلى صوت، يرجونا أن نعود للقاء العقيد القذافي. لم يكن الذى يجرى خلفنا أى أحد، ولكنه كان بشير هوادى عضو مجلس قيادة الثورة ومعه عضو مجلس ثورة آخر هو محمد المقرئ. وعندنا، الأستاذ أحمد بهاء الدين

وجلسنا معه وفى نيتنا أن نقضى خمس دقائق معه، ولكنه كان يصر على الجلوس كلما استأذنا بالانصراف. وامتدت جلستنا معه إلى ساعة ونصف الساعة، خلالها ناقش أحمد بهاء الدين فى مقال كان قد نشره على صفحات (المصور)، ثم التفت نحوى وقال: لا تغادر ليبيا قبل أن أغادر المستشفى، فى معك حديث طويل، فلما استفسرت من العقيد عن موعد خروجه، أجاب: بعد أسبوعين. فلما اعتذرت له عن عدم إمكنى البقاء فى ليبيا كل هذا الوقت، قال ضاحكاً: إذن سأصدر أمراً باعتقالك فى ليبيا. ثم قال العقيد وهو يضحك: لقد قرأت لك كتابك الأخير (الشيخ لعبوط يتلعبط) وكنت أحياناً أضحك وأنا جالس وحدي، واضطرت إلى ترك الكتاب، حتى لا يرانى أحد وأنا فى هذه الحالة فيتهمنى بالجنون. ثم قال: سأعطيك فكرة الملك السنوسى، وستجد فيها ما هو أعجب وأغرب من يوميات الشيخ لعبوط. ثم قال لبشير هوادى: اذهب مع محمود إلى دار الحكومة واعطه فكرة الملك السنوسى. وعندما أبدى بشير هوادى بعض الفتور، قال له العقيد بلهجة آمرة: اذهب معه الآن واعطه الفكرة.

كان هذا أول لقاء لى مع العقيد، وغادرت ليبيا مع الأستاذ بهاء قبل أن يغادر المستشفى. كان ذلك فى عام ١٩٦٩، ولم تقدر لى العودة إلى ليبيا مرة أخرى إلا فى عام ١٩٧٥، وفى شهر أبريل بالذات، أى بعد ست سنوات من ذلك اللقاء الخاطف فى حجرته بمستشفى طرابلس العام. ولقد كانت فى ذهنى

صورة رسمتها لليبيا الثورة، تصورت أن كل ليبي تحول إلى ثائر، وأن الصحراء تحولت إلى جنات خضراء، وأن طرابلس أصبحت قطعة من أوروبا، وأن ليبيا بالثورة دخلت القرن العشرين من أوسع الأبواب. ولذلك كانت صدمتي شديدة عندما اكتشفت أن كل شيء بقى على ما هو عليه، الشيء الجديد الذى طرأ على الحياة هناك هو مجموعة شعارات، وعدة ميكروفونات، وصراع السلطة بين الثوار على أشده. بشير هوادى مبعد عن السلطة، ومحمد المقريف مات فى حادث مريب. صحيح أن هناك أشياء كثيرة تغيرت، منها أن الثوار تحولوا إلى حكام. فى الزيارة الأولى مثلاً، كان على الصحفى الذى يزور ليبيا أن يسدد فاتورة فندقه، لأن الثوار لا يرشون أحداً، ولا يطمعون فى استمالة أحد. ولذلك سدد حسابى فى الفندق صديقى أحمد الفتاحلى، وسدد فاتورة الأستاذ أحمد بهاء الدين صديقه الأستاذ الغتورى. ولم يكن الحساب إلا عدة دنائير قليلة، فقد عشنا فى نقش شديد يليق بنبض الثورة ونهجها. ولكنهم فى الزيارة الثانية استضافونى فى فندق الشاطيء. وهو فندق يقع على مساحة كيلو متر مربع، ولذلك فهو أشبه بالمطار منه إلى الفندق، واكتشفت أنه مضيفة لجميع المناضلين من كل أنحاء الأرض.

ولما كان المناضلون أشكالاً على ألوان، فقد اكتشفت أن بالفندق عدداً من المناضلين نزلوا بالفندق عند افتتاحه منذ عامين، ولم يغادروه بعد! وكان هؤلاء ينامون نهارهم بالفندق، ويسهرون الليل فيه، ولما كانت الخمر ممنوعة، فقد اكتفوا بعصير الليمون، وهو عصير مستورد من إيطاليا، كان له طعم الليمون، وليس له خصائصه، شيء أشبه بالنضال الذى يقوم به هؤلاء السادة المناضلون. وكان البعض منهم حسن النية، والبعض الآخر قليل الحيلة، والبعض الآخر أرزق معتمد على الاسترزاق، وجد ضالته فى فندق الشاطيء، وأقام على أمل أن تحقق له الأيام جزءاً مما يريد. الشيء الوحيد الذى كان يربط بين الجميع هو الأحلام: بعضهم يحلم بأمة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط، وبعضهم كان أكثر تفاؤلاً، وهؤلاء كانوا يحلمون بوحدة من المحيط إلى المحيط، من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهندى، والبعض الآخر كانت أحلامه تمتد إلى أبعد من

هذا، فيحلم باسترداد الأتلس والأسكندرونا، وبخارى، وسمرقند، ولم لا؟ والثورة فى ليبيا قائمة والكفاح دوار! وسهرت ليلة واحدة مع المناضلين فى فندق الشاطيء، ولم أعد إليهم بعد ذلك قط.

واجتمعت بالعقيد ذات ليلة عاصفة ومطيرة فى مكتبه بالقيادة العامة، العقيد وأنا وليس معنا ثالث، وعندما سألتنى عن أحوالى فى فندق الشاطيء قلت له ضاحكاً: الفندق عظيم، ولكن المناضلين فيه أكثر من اللازم. وضحك العقيد وهو يقول: والله يا محمود عندنا مناضلون أكثر من حاجة الأمة العربية. وبالرغم من أن الجلسة استمرت ساعات طويلة، وتشعب الحديث فيها، وذهب إلى اتجاهات شتى، إلا أن العقيد طلب خلال اللقاء عدة طلبات محددة:

- أن أصدر جريدة فى بيروت، فاعتذرت له بأن ذلك مستحيل لأننى سأقتل فى اليوم التالى لصدورها. وقال العقيد: ولكنى سأحميك فى بيروت. وقلت للعقيد: أنا واثق أنك تستطيع حمايتى فى بيروت، ولكن المأساة أن الخطر لن يكون من جانب الرأسمالية العالمية، أو الامبريالية الاستعمارية، أو الشواشى العليا للبرجوازية.. إلى آخر هذا الكلام الذى لا يضر ولا يفيد. الخطر الحقيقى يا سيادة العقيد سيكون مصدره أصحاب الصحف اللبنانية. فالجرائد التى من هذا النوع لها أصحابها، وسوق الصحف الخاضعة لنفوذ الأنظمة العربية لها زعماء وآباء روحانيون، وهم مستعدون لصنع كل شيء وأى شيء لمنع الغرباء والمتطفلين.

- أن أعيش فى طرابلس، وأكتب فى جريدة ليبيا اليومية، وهى جريدة الفجر الجديد. ومصيبة العبد لله أن النكتة تحبك معى أحياناً، وقد حبكت معى فى تلك اللحظة فقلت له: اكتب فى الفقر الجديد؟ ويبدو أن النكتة لم تعجب العقيد فغاب عنى فترة، وغاب بعيداً عن الحجرة التى كنا نجلس فيها، وتبدلت ملامح وجهه وبدأ عليه أنه يكظم غيظاً شديداً فى داخله.

- أن أصدر كتاباً عن السادات، وعن حقيقة ما دار قبل وحول وأثناء يوم ١٥

مايو الشهير. وأفهمت العقيد أن الوقت لم يحن بعد لكشف أسرار هذا اليوم العجيب، وأنتى سأكتب هذا الكتاب عندما تأتى الفرصة وبحين الوقت المناسب.

وعندما انتهت المقابلة فى فجر ودعنى العقيد عند الباب الخارجى، وقال: هذه بلادك تستطيع أن تقيم فيها كما تشاء، وتستطيع أن تغادرها كما تشاء، وسأراك مرة ثانية عما قريب. ولكن مقابلتى له لم ترقه بالتأكيد. كنت صريحاً أكثر من اللازم وجلياطاً فى بعض الأحيان، وشعوت بفنور من جانب المسؤولين الصغار الذين كانوا يبدون للعبد الله عواطف مبالغ فيها فى أول أيام الزيارة. وزاد الفتور عندما دعونى إلى ندوة فى الإذاعة، وحضرت الندوة بالفعل، ولكنى اعتذرت عن الكلام. ولأنه رب ضارة نافعة، فقد كان فتور هؤلاء المسؤولين الصغار سبباً فى الإقلال من الزيارات التى كانوا يقومون بها للعبد لله، ووفر هذا الفتور وقتاً للعبد لله لكى يسرح فى الشارع الليبى.

كان دليلى إلى الشارع الليبى، محامى فى الأربعين من العمر، وهو خريج كلية الحقوق المصرية، وكان يتصور أن المحاماة هى أرقى مهنة فى الوجود، وأن المحامى هو رسول الله على الأرض. وكان يعيش على أمل واحد، هو أن يعيش حتى يرى اليوم الذى يتحرر فيه الشعب الليبى من حكم السنوسى؛ ليتولى الشعب حكم نفسه، وليعيد صياغة الحياة على أرض ليبيا وعلى النحو المطلوب. وكارثة المحامى الشاب أنه عاش حتى رأى ذلك اليوم، وعاش حتى جاء (سنوسى) آخر أصغر سناً، ويرتدى زياً مختلفاً، ويقود ليبيا فى مهمة ليست مؤهلة لها، ولم يرشحها أحد للقيام بها! ومأساة المحامى الشاب أنه عاش حتى رأى المحاماة مهنة غير مرغوب فيها، وحتى رأى المحامى مجرد صعلوك فضولى طفيلى لا يريده أحد.

ودخلت مع المحامى الشاب عدداً من البيوت الليبية، من مختلف الصناعات والطبقات. قضينا ليلة فى بيت محامى أكبر سناً، وقضينا ليلة أخرى فى بيت فلاح، وقضينا ليلة ثالثة فى بيت صحفى مفصول من الخدمة وممنوع عليه

العمل فى مهنة الصحافة، وقضينا ليلة حافلة فى بيت تاجر يبيع الملابس المستوردة من إيطاليا. وعلى اختلاف الصناعات والرتب كان الجميع يتكلمون لغة واحدة، ويشعرون بنفس المرارة، ولهم أمنية واحدة وهى: أن يغادروا ليبيا اليوم قبل الغد، وأن يذهبوا إلى أى مكان.. لا شئ يهمهم. وأدركت من خلال الدردشة مع الجميع، أن أحداً فى ليبيا لا يستطيع أن يتنبأ. حتى ولو كان عرافاً. ما الذى سوف يأتى به اليوم، ولا ما الذى يخبئه الغد؟ ولكن الحياة تمضى بهم دقيقة بدقيقة، وثانية بثانية.

وجهاز التلفزيون هو الذى يصدر القوانين، وهو الذى يسن الضرائب، وهو الذى يذيع أخبار الإعدامات التى تمت بالأمس! ويفاجأ المواطن الليبى وهو جالس أمام التلفزيون، بأن أحد أقربائه أو أحد أصدقائه أو أحد معارفه قُتل. ليه؟ وما هى التهمة؟ وأين جرت المحاكمة؟ ومن هو القاضى؟ ومن هم الشهود؟ وما هى الأدلة؟ كل هذا لا أحد يعرفه، وما جدوى أن يعرفه أحد؟ يكفى أن الإعدام قد تم تنفيذه، ومن فضل الله أن التلفزيون يذيع الخبر على الناس!.

وعندما أمنت النظر فى التجربة الليبية أدركت أن التبسيط هو مأساتها. فالزعيم عبد الناصر كان زعيماً للعرب لأنه حاول توحيدهم، إذن.. فليحاول الزعيم الآخر توحيد العرب أيضاً. وما دام يحاول، سيصبح حتماً زعيمها. والزعيم عبد الناصر كان زعيماً وطنياً لأنه حارب الاستعمار، إذن.. فليحاول الزعيم الآخر محاربة الاستعمار، وما دام يحارب - ولو حتى فى الإذاعة - فقد صار زعيماً وطنياً! وإذا كان فى العالم نظريتان، الشيوعية والرأسمالية، فلماذا لا يكون هناك نظرية ثالثة؟ ويكفى أن تكتب النظرية، وأن تطبع فى كتب ملونة، وتردد فصولها فى الإذاعة، ليصبح صاحبها هو زعيم القوة الثالثة! وهى عملية عبيطة أشبه بأن يقوم الممثل عادل إمام بأدوار يوسف بك وهبى، أو يتدرب فاروق جعفر ليأخذ مكان مارادونا، أو ينهك الفيلسوف زكى نجيب محمود فى التدريب لينازل البطل محمد على كلاى! فالزعيم عبد الناصر صار

عبد الناصر لأنه كان في مصر، ومصر لها دور تلعبه منذ قديم الأزل، وستظل تلعبه إلى أن يشاء الله. والعبد لله مثلاً يمكنه أن يصبح بطل العالم في يوم من الأيام.. ولكن في لعب الكوتشينية! أما في المصارعة والملاكمة وشدد الحبل، فالمحاولة لن تكون أكثر من عملية جنون، ولن تؤدي في النهاية إلا لمستشفى الصدر، وعلى أحسن الفروض، مستشفى الخانكة!.

وبعد عدة مشاوير في الشارع الليبي أدركت عمق المأساة وفداحتها.. كانت الشوارع خالية تقريباً، وفي بعض الأماكن كان هناك زحام. فإذا اقتربت من الزحام اكتشفت أنهم جميعاً وافدون من مصر، جاءوا إلى ليبيا سعياً وراء الرزق. وعجبت لهذه المحاولات المستمرة لحشد الجماهير. فأين الجماهير التي تريد هذه الأجهزة أن تحشدها؟! الجماهير الليبية؟! إذا كان المقصود هؤلاء، فلمعب كورة واحد يكفي لحشدهم! هل هي الجماهير المصرية الموجودة في ليبيا التي يريدون حشدها؟ الحقيقة أن هناك خطأ في التحليل بالنسبة لهذه الجماهير، ليس في ليبيا وحدها، ولكن في أماكن أخرى كثيرة. فهذه الجماهير التي تركت مصر إلى بقاع شتى في الأمة العربية، هدفها الأول هو البحث عن عمل، والسعي وراء الرزق، ومحاولة تحسين الأحوال. ولكن بعض فلاسفة النظم العربية إياها يتصورون أن هذا الكم الهائل من الجماهير، لم يخرج فقط من أجل الرزق، ولكن في أعماقه ثورة مكبوتة ضد الأوضاع في مصر، فهم ثوار دون إدراك، وهم مناضلون دون وعي. وكان نتيجة هذا التحليل الخطأ، فضائح ومصائب وأخطاء سياسية فادحة.. ومع ذلك لا يتعلمون!.

وكان أعظم مثال على خطأ التحليل من جانب النظم إياها هو حزب الكهرباء. وكان بطل حزب الكهرباء المصري هو رجل اشتغل خادماً في مكتب عبد الناصر. وكانت مهمته في المكتب هي تقديم الشاي والقهوة، وفتح الباب للضيوف والزوار. وفي زمن السادات هاجر الرجل من مصر وتسكع في بلاد كثيرة في العالم العربي، وأخيراً اصطاده نظام عربي من إياهم، فصار

الرجل زعيماً لحزب مصري في المنفى، يرفع شعارات ثورية وتقدمية، ويشجب كل المخططات الاستعمارية والمؤامرات الإمبريالية، ويدعو إلى قيام الثورة العربية.. وبقيادة حزب الكهرباء! ولكن ما هو سر تسمية الحزب بحزب الكهرباء؟ السبب أنهم بحثوا عن وسيلة لتمويل الحزب، دون أن يتورط النظام الذي يرعاه مباشرة في هذا التمويل. وهداهم التفكير إلى إنشاء شركة كهرباء لتمويل هذا الحزب الحديدي، والذي كانت لجنته المركزية تتألف بالإضافة إلى الخادم إياه، من مهندس أرزقي، ومحام أرزقي، وشاب يشتغل بالسياسة باعتبارها أسهل طريق للرزق. وعندما وقع حادث المنصة يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١، أعلن رئيس حزب الكهرباء مسئوليته عن الحادث، وتفرغ عدة أيام بعد ذلك للإدلاء بأحاديث ثورية، عن رأيه في كل المشاكل، من أول مشكلة البحر الكاريبي، وإلى مشكلة فيتناو!! حتى شركة الكهرباء التي أنشأت خصيصاً لتمويل الحزب الحديدي اكتشفوا أنها سجلت في جزر البهامز، وباسم زعيم الحزب وزوجته والمهندس الأرزقي وحرمه!.

ليبيا المسكينة هي الأخرى وقعت في هذا المطب، وأنشأت عدة أحزاب مصرية ثورية وعلى غرار حزب الكهرباء، كان أشهرها حزب تحرير مصر، ومن المضحك حقاً أن أعضاء هذا الحزب يحررون الآن بعض الصحف داخل مصر وخارجها.

المهم عشت في ليبيا أياماً أتناول المبكبة والبازين مع أفراد الشعب الليبي، وأغادر الشارع مسرعاً مع حلول المساء؛ فهكذا يتصرف الشعب الليبي، وكأن حظر التجول مفروض عليه. ومنذ حلول المساء لن تجد ليبيا في الشارع، ومن يقبض عليه في الليل ولو كان في طريقه إلى الطبيب، فسينام في السجن مدة قد تصل إلى أسبوعين، هذا إذا كان الليبي وديعاً وليس من هواة المشاكل. أما إذا اشتبك مع الشرطة في عراك، أو سب أحدهم، أو تهور فركل أحدهم، فالنتيجة الحتمية هي إذاعة اسمه ضمن قائمة الإعدامات في التلفزيون.

وفي تلك الأيام التي عشتها في ليبيا، والتي امتدت ثلاثة أسابيع بالتمام

والكمال، اكتشفت أيضاً أن السلطة التي تحكم ليبيا ليست واحدة، ولكنها عدة سلطات. فبينما أبدى بعض المسؤولين الصغار فتورهم نحوى بعد لقائى بالعقيد، أقبل على العبد لله مسئولون آخرون صغار أيضاً، ولكنهم يعملون فى أجهزة منافسة. فهناك فى ليبيا أكثر من دولة، وأكثر من حكومة، وأكثر من مسئول. وقد تلقى حتفك ليس لأنك معارض، ولكن لأنك تعمل مع مسئول منافس يدبرون لخلعه أو تحجيمه. وكم من مسئول ليبي كان فى القمة، ثم هوى فجأة إلى القاع، وكم من مسئول كان فى القاع، ثم طفا فجأة على السطح. صراع السلطة على أشده بين الجميع ولن يتوقف قط، لأنه الأساس الذى تقوم عليه قيادة العقيد، كما أنه الضمان الوحيد لبقاء العقيد فوق القمة.

## يتوجع الفريكيو !

مأساة نعم، ولكنها مأساة متشابهة ومتكررة فى أنحاء الوطن العربى، ضحيتها الوحيدة هو المواطن العربى. وتخسر الأمة بعض أجزائها، وتفقد خطاها على الطريق، بسبب ممارسات مجنونة، ولكن كل شيء يهون طالما أن النظام موجود ومستمر. والإذاعة كفيلة بتغيير الحال، فالثورة مستمرة والوحدة على وشك القيام، والرايات مرفوعة والمعارك مستمرة، والكفاح دوار !.

ما الفرق بين النظام أيام السنوسى والنظام أيام مؤتمر الشعب العربى؟ لا شيء سوى أن أيام السنوسى كانت الحياة روتينية وخاملة وميتة ومملة، لا يقطع هذا الملل إلا مجيء شهر رمضان أو حلول عيد الأضحى. فى عهد اللجان الشعبية الحياة مخيفة ومروعة ومفزعة ومملة أيضاً وكثيية، لا يقطع هذا الملل إلا صوت المسيرات الشعبية، أو حلول موعد تنفيذ الإعدام فى وجبة جديدة من الخونة، الذين لم يقرأوا الكتاب الأخضر، ولم يباركوا الوحدة مع مالطة، ولم يذهبوا مع الجيش الشعبى للقتال فى أحراش بوروندى. وبعد ثلاثة أسابيع غادرت ليبيا.. وإلى الأبد..

الحق أقول : إننى انبهرت بشدة بجمال المغرب العربى ، جمال جاء نتيجة امتزاج الحضارة العربية بالحضارة الأوربية . هذا الامتزاج نتج عنه عصير سكلانس من حضارتين متناقضتين ومختلفتين على طول الخط ، حضارة أوربية ترى أن الحياة فرصة يجب أن يستمتع بها الإنسان ، ولأنها فرصة واحدة وأخيرة فلا بد للإنسان أن ينتهزها ويمصمصها حتى النخاع . وحضارة عربية إسلامية ترى أن الحياة مجرد كوبرى إلى حياة أخرى أجمل وأكمل . والسعيد هو الذى لا يتوقف عند هذا الكوبرى أو يتلأأ . المحظوظ هو الذى يمضى سريعاً وبعيداً عن هذا الكوبرى ، ليلقى بنفسه فى أحضان الجنة حيث الراحة الأبدية والنعيم المستديم .

ولذلك رأيت فى بلاد المغرب العربى جامعات علم كجامعة الأزهر ، ورأيت أحياء متعة ولا حى البيجال فى باريس ، ولا حى سوهو فى لندن . ورأيت فى

مدينة فاس المغربية رجالاً أتقياء في مستوى السلف الصالح ، وعرفت في مدينة المحمدية - المغرب أيضاً - ما لم تره عين ولا حتى في هونج كونج . وتعرفت في حى الزيتون بتونس على رجال يقومون الليل ووجوههم في المصحف ، ويسجدون النهار ووجوههم نحو القبلة . ورأيت في بوسعيد نسوان زلط ملط ، ورجال من بتوع الفريكيكو . وتناقشت حول هذه الظاهرة مع بعض المتقنين من المغرب العربي ، وخرجت من المناقشة بأن السبب في وجود الظاهرة وانتشارها هو تأثير الشاطيء الآخر من البحر ، هناك في الأندلس حيث عاش العرب مئات السنين ، ووصلوا في زحفهم حتى أبواب باريس ، ثم تراجعوا إلى كتالونيا ، وحطوا رحالهم في الكوستابرافا ، وتمرغوا في حدائق الأندلس ، وتمددوا في سهول غرناطة . هناك وعبر مئات السنين نشأ نموذج العربي الجديد .

وأشهد أن العرب لم يضيعوا وقتهم هدرًا خلال القرون التي عاشوها في أسبانيا . فقد أنتج الاندماج العربي الأوربي صنفًا من البشر ليس له مثيل في أى مكان . وأى بنت أسبانية ستجد لها ألف بنت تشبهها في طنجة وتونس والإسكندرية وبغداد والشارقة وصنعاء . والشعر المرخى على الأكتاف ، والعينان اللتان تطلقان رصاصاً في القلوب ، والقوام الذى هو شيء بين غصن البان وعصا الخيزران .

واللغة العربية لا تزال باقية . وكل كلمة أسبانية تبدأ بـ ( ال ) التعريف هي كلمة عربية أصابها بعض التحريف ، لكنها بقيت عربية على كل حال . فالقاضي هو ( الكالدى ) ، والزيت ( الثيت ) ، والزيتون ( الزيتونث ) ، والثور ( الطورس ) ، والوادي ( الجوادى ) ، والحجارة ( البخارا ) ، والقصر ( الكازار ) ، والحمراء ( الهمبرا ) . و ( التروبيدور ) معناها الطرب يدور . و ( الفلامنجو ) معناها فلاح مغنى - أو المطرب الشعبي بلغة هذه الأيام . و ( أوليه ) هي الله باللغة الأسبانية . وألوف من الكلمات العربية تجرى على السنة أفراد الشعب الأسباني دون أن يدركوا حقيقتها .

ولكن الأسباب للأسف الشديد يشعرون بمرارة نحو العرب ، ويقولون : إن العرب فتحوا أسبانيا مرتين ، مرة بقيادة موسى بن نصير ومرة بقيادة فرنكو ! وأصل الحكاية أنه عندما نشبت الحرب الأهلية الأسبانية ، كان فرنكو قائدا عاما للفرقة الأسبانية في المغرب . وعبر فرنكو البحر إلى أسبانيا بقوات مغربية ، وعندما تحقق له الانتصار أباح لجنوده المغاربة مدينة مدريد لمدة أسبوع . ولا يزال الأحياء من أهل مدريد يذكرون تلك الأيام ككابوس ثقيل . وحفظ فرنكو الجميل لهؤلاء ، فاحتفظ بالفرقة المغربية كحرس خاص حتى يوم وفاته . وكان أهم قادة الجيش الأسباني مغربيا يدعى محمد مزيان ، وظل في منصبه حتى بلغ الثامنة والسبعين ، ولم يترك منصبه إلا بالموت ! .

وتجولت طويلا في الأرض التي كانت عربية ، أطوف بعواصم المجد القديمة ، قرطبة ، وطليطلة ، والأندلس ، ومجريط ( مدريد في لغة أهل الأندلس ) . ولا تزال قصور العرب القديمة شاهدة على حضارتهم العظيمة ، ولا تزال جامعاتهم ومعاهدهم الموسيقية تحكى للأجيال قصة المجد الذى كان . مساكن القيسية واليمنية من أهل ذلك الزمان ، تحاربوا بالسيوف حتى تكسرت ، وبالرمح حتى تحطمت ، وبالنبال حتى تمزقت ، ثم تجاذبوا بالشعور والأظافر والأسنان ! .

يحكى أن حاكم الأندلس يوسف بن فهري ، كان له أعداء ينافسونه على السلطة ، ولكنه تمكن منهم أخيراً ، وذبحهم جميعاً ، ثم أمر بأن يمد له السماط على جثث لم تبرد بعد . ويقال إنه تناول طعامه وهو جالس على الجثث الغارقة في الدماء ، وإنه تجشأ بعدما انتهى من طعامه وقال قولة شهيرة : « والله ماذقت طعاماً هنا من هذا قط ! » .

وقفت أنفراج على أطلال مدينة توليدو ، وفي العين دمعة ، وفي القلب حشرات ! لقد رأيت مثل هذا المنظر كثيراً : في القاهرة القديمة ، وفي بغداد القديمة ، وفي دمشق القديمة .. الهندسة والرسوم والأطلال ذاتها ! وكدت أركع ، وأقبل الأرض التي صافحتها أقدام أبطال العرب القدامى عندما كانوا



رجالاً ، وأمعنوا غرباً إلى أن وصلوا إلى ميناء طولون الفرنسى ، ثم عادت أقدامهم فانسحبت من الأرض عندما تحول أحفاد هؤلاء الأبطال إلى أشباه رجال ، وظلوا ينسحبون منها فى كرم زائد إلى أن خرجوا منها فى مشهد ذليل ، ولم يخلفوا لنا إلا الذكريات البغيضة مكللة بالعار ! .

يالأيام التعيسة الحزينة التى عشتها فى الأندلس ، أكاد أبكى على المجد الذى ولى ، والعصر الذهبى الذى ضاع ! من هذه النافذة التى فتحها العرب ، تعلمت أوروبا الموسيقى ونقلت ( ألف ليلة وليلة ) ودرست تعاليم ابن رشد ، وتعلمت على الفارابى وابن الهيثم وابن خلدون ! تصوروا ... لو بقيت شبه جزيرة إيبيريا - أسبانيا والبرتغال - عربية حتى يومنا هذا فأى عز لنا ، وأى ظهر نستند إليه ؟ ولتتنا نتعلم من أخطائنا ! ولكن فلسطين ضاعت منا كما ضاعت الأندلس بسبب الألعيب نورى السعيد وغباء الملك فاروق ، وتدبير الخونة والجواسيس ، وجهل الأئمة فى اليمن ، وخيبة الجميع ! ثم ضاع النصف الآخر بسبب نظم الانفتاح والتصحيح والتلقيح ، والسعى إلى تسوية تضمن كراسى الحكم لحكام لفظتهم شعوبهم ، ومستعدين للتضحية بكل شيء إلا السلطة وصولجان الحكم ! وضاعت فلسطين أيضاً بفضل نظم ثورية اكتفت بإعلان الحرب ضد العدو فى الإذاعة ، ومقارعتة بقصائد الشعر ، وحشد كتائب الأناشيد ، وتحقيق النصر عن طريق الأغاني .

ولكن فلسطين رغم كل شيء ، تبقى جزيرة صغيرة محصورة داخل بحر العرب . وفى يوم ما ، فى شهر ما ، فى عام ما ، فى قرن ما ، سيخرج من أصلاّب هذه الأمة زعيم ( شارب من بز أمه ) ، يوحد أمة العرب كما صلاح الدين ، ويرفع سيفه كما قطز ، يزحف بهم ليحرر القدس السليبية وعكا الأسيرة . ويحاطب الأجيال السعيدة المقبلة التى ستعيش فى ذلك العصر المجيد .

...

وياعمق الحسرة التى شعرت بها ذات يوم على شاطئ الكوستابرافا ، التقيت ببنت أسبانية ترطن باللسان الأسبانيولى ولا تعرف غيره ، البنت اسمها ( فاتنما ) ، وقالت تيمناً باسم القديسة سانت فاتنما . وعبثاً حاولت إفهامها أن فاتنما اسم عربى وأصله فاطمة ، وأن القديسة إياها لا بد أنها هى السيدة فاطمة بنت النبى ، أو ربما هى فاطمة أخرى من شيخات المغرب المباركات ، وبعد سقوط الدولة العربية فى الأندلس حولوا الشيخة فاطمة إلى سانت فاتنما ، تماماً كما حولوا المساجد إلى كنائس ، وحولوا دور العلم العربية إلى مزارات للسياح . البنت شكلها عربى ، لو سارت فى شوارع المغرب ، أو مشت فى شوارع القاهرة ، أو تسكعت فى شوارع بغداد ، لما استطاع أحد اكتشاف أنها من غير أهل البلاد .

عزمتنى البنت على أكلة فى بيتها ، أكلة دسمة ولذيذة يطلقون عليها اسم ( بهية ) ، هى نفسها الأكلة العربية الشهيرة فى المغرب ، والتى يطلقون عليها اسم ( بقية ) . وهى عبارة عن تورلى أو خليط من عدة خضروات وأصناف لحوم : بطاطس على قلقاس على سبانخ على قرنبيط على كوسة على طماطم على جزر على بصل على ثوم ، على قطع من لحم الضأن ولحم الدجاج ولحم السمك ، على زيت على لبن على ملح على سكر على جبنة على مرية ، على أى شيء وعلى كل شيء ، فهى بواقى من كل الأصناف والأنواع ، وبدلاً من التخلص منها بالقائها فى صندوق الزباله ، اخترعت المرأة العربية هذه الأكلة اللذيذة الطريفة ، التى أشهد أننى لم أتذوق مثلها إلا فى طاجن الحاج سرور أبو هاشم وفى عربة صديقى الفلاح إبراهيم نافع . وعندما قلت هذا الكلام لشقيقة البنت فاتنما - وكانت تعرف الانجليزية - نفت ذلك بشدة ، وأكدت أنها أكلة أسبانية ، وأن عرب أسبانيا نقلوها إلى المغرب بعد رحيلهم إلى هناك . وقالت البنت لتأكيد رأيها : إن المرأة الأسبانية حريصة ، بينما المرأة العربية مسرفة . ثم التفتت نحوى وتحفرت كنمر شرس وقالت : ألم تر العرب فى أسبانيا اليوم ؟ إنهم هناك على الشواطئ يعيشون جميعاً كملوك القرن السادس عشر ، ويبعثرون الأموال ، كما يبعثرون الأطفال ذرات الرمال على الشاطئ . وسكت

لم أتكلم . صدقت البنت الأسبانية ، فمن ير عرب اليوم خصوصاً في أسبانيا ، فلن تقدر قوة على ظهر الأرض أن تقنعه بأن عرب اليوم هم أحفاد عرب الأمس الذين كانوا أشاوس ، وكانوا أبطالاً ، وكانوا فرساناً ، وأنهم فتحوا العالم بإيمانهم وبسيوفهم ! .

ويذهب عرب اليوم إلى أسبانيا فلا يقضون نهارهم إلا في النوم ، ولا يقضون ليلهم إلا في كازينوهات القمار ، ولا يرون من الأسبان إلا نماذج معينة ، هي دائماً نماذج من بتوع الفريكيكو ! .

وكم شعرت بغصة وأنا جالس في حلبة المصارعة أشاهد معركة بين الثور والإنسان . وهى لعبة أدخلها العرب إلى أسبانيا ومارسوها قروناً طويلة قبل أن تصبح علامة على الأسبان . وكل الأسماء المتداولة في اللعبة عربية ، ( التورس ) هو الثور ، و ( الميتادور ) - وهو البطل الذى يتولى الإجهاز على الثور بسيفه - أصلها كلمة عربية معناها الموت للثور . وكان بطل الحلبة ولا يزال ، يتقدم إلى المنصة التى يجلس فيها الوالى قديماً والمحافظ حديثاً ، ويطلب الإذن له بالإجهاز على الثور . وكان الوالى قديماً يرفع يده ويأذن له قائلاً : « الموت للثور » ، وحرّفها الأسبان مع القرون والسنون إلى ( الميتادور ) .

مأعق الشجن الذى تثيره في النفس زيارة بلاد الأندلس ، البلاد التى اضطر العرب إلى الرحيل عنها بعد أن تمزقت دولتهم إلى إمارات وممالك ، وبعد أن تقاتلوا فيما بينهم حتى تكسرت الرماح والسيوف فتقاتلوا بالبنوس حتى تحطمت ، وتجادبوا بالشعور والأظافر والأسنان ، واضطر آخر ملوكهم إلى البكاء وهو يغادر الشاطئ الأسباني ، راحلاً في مركب تعيس إلى الشاطئ المغربي .. بكى آخر ملوك العرب وهو يلقي آخر نظرة على الشاطئ الأندلسي ، فنهزته أمه بشدة وزجرته بعنف ، وقالت له : « ابك كالنساء على ملك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال ! » . مأحوجنا نحن العرب اليوم ، إلى أن يبكى كل فرد منا كالنساء ، على فلسطين التى ضاعت منا ، ولم نستطع أن نحافظ عليها كالرجال ! .

## وإن طال السفر

وإذا كان المغرب العربى قد بهرنى بجمال الطبيعة والخضرة الدائمة كأنما هو ضاحية في جنة عدن ، فقد هزنتى شبه الجزيرة العربية أكثر ، وبهرنى كل شيء هناك ، حتى البداوة والجهالة ، ونمط السلوك الذى كان سائداً في عصور ما قبل التاريخ ! وبعد رحلة شاقة مملة مرهقة ، هبطت الطائرة في أرض خلاء يقال لها مطار ، في ركن من أقصى بقعة في شبه الجزيرة . وبالرغم من أننا وصلنا في الظلام ، إلا أننا لم نلمح أى أثر لأنوار المطار ، وخيل إلينا أننا نهبط هبوطاً اضطرارياً في المحيط الهندى . وعندما استوت الطائرة تجرى على الأرض الصلبة ، هتفت من أعماقي كما هتف العربى القديم : « لا بد من صنعا وإن طال السفر » ! .

هذه إذن صنعاء وكل شيء على حاله منذ جدنا آدم عليه رضوان الله . آسف واعتذر ، والاعتذار أقدم به الى سيدنا آدم عليه السلام . لأنه لوقام من قبره وتجول في أنحاء اليمن التى رأيتها وقتئذ لتحسّر على سوء الأحوال الذى تردت

اليه البشرية من بعده ، ولانفطر قلبه حزنا على أبنائه الذين يقاسون كل هذه الأحوال ! حتى الطبيعة ساءت عما كانت عليه عندما خلقها الله ! الجبال نفسها أضحت أكثر جهامة وأكثر قتامة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! والشوارع .. أى شوارع ؟! أقصد المسالك ، مشقوقة هكذا بلا قصد ولا نظام ، كأنها دروب مهجورة داخل غابة انزلقت من ذاكرة الزمان ! باللهول ، على رأى عمنا يوسف وهبى . هل هذه هي اليمن السعيدة ؟! وأى سعادة فى أن يحيا الانسان غارقا هكذا فى الوحل ؟! سابحا هكذا فى الصمت ؟! مخنوقا هكذا فى الخوف والرعب والاضطهاد ؟!

وكان الملك أحمد ، أو الإمام أحمد ، أو سيف الإسلام أحمد ، جالسا على سرير الملك لحظة صافحت قدمائى أرض اليمن . أو بمعنى أصح ، كان نائما على سرير الملك ، ولم يكن معه من أدوات الحكم إلا سيفه وبطشه . وكل مآثره فى سنوات حكمه السعيد ، وهو سعيد باعتبار اليمن سعيدة ، أقول كانت كل مآثره مئات من الرؤوس تولى قطعها بسيف صدى ، لدرجة أن القتل كان يرشو السيف لكى يختار سيفاً أكثر حدة ! .

ولم يكن فى اليمن شعب ، ولكن كانت فيها قبائل . وكان رؤساء القبائل يؤمنون بأن الإمام أحمد فيه سر من عند الله ، فهو يعلم ماتهمس به الشفاء وماتخفيه الصدور ! ولكن اليمنى العاقل كان لا يخفى رأيه بل يجهر به حتى يقبض عليه الإمام ويقتله . وكان لحظة القتل يتقدم إلى السيف ، والبشر يطفح من وجهه ، والبسمة تحتل مكانا عريضا على شفتيه ! ويموت اليمنى العاقل آخر سعادة وانسجام ! ويحسده غيره من أهل اليمن ويحفدون عليه لأنه مات تاركا إياهم فى جحيم الإمام ! ولم يكن فى اليمن الا طبيب إيطالى واحد لزوم معالجة أسنان الإمام . ولم تكن فى صنعاء العاصمة الا صيدلية واحدة تغلق أبوابها مع غروب الشمس ، فإذا أحس أحد اليمنيين بمغص أو بصداع ، دق أبواب قصر الإمام طالبا حبة أسبرين أو جرعة دواء ! .

وكان المواطن اليمنى إذا فكر فى السفر من مكان إلى مكان فهو إما فدائى

وإما مجنون ! وإذا التقى اليمنى بآخر بعد الغروب فهو إما قاتل أو مقتول . وكان الانجليز يحتلون اليمن الآخر . وكان الإمام يحتل اليمن الذى نزلنا فيه . وأشهد شهادة حق لله وللتاريخ ، أن الاستعمار البريطانى كان أخف وطأة من الاستعمار الإمامى ، وأن نظاما مثل هذا ليس له مثيل فى أى زمان أو مكان ، حتى ولا أيام الهكسوس ! .

كانت المناسبة التى نزلنا فيها اليمن هى الاحتفال بالوحدة الورقية التى قامت بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة . ولكن حتى هذه الوحدة الورقية أفلقت هؤلاء الذين يتربصون بالعرب الدوائر . وهؤلاء المتربصون أجنب أحيانا ، وعرب أحيانا أخرى . والله فى خلقه شؤون ! ويبدو أن الإمام أحمد قد استجاب لإغراء الرشوة فأنشد يوم الاحتفال قصيدة من نظمه :

نريدها وحدة بيننا مبنية  
على أسس بيننا مرعية  
يكون عمادها المحبة والوئام  
وأساسها حكم الشريعة والإسلام

وأضاف إليها أحد الظرفاء من عنده :

ويكون رئيسها جلالة الإمام  
وأشرب كوكولا واتمدد ونام !

والح على عقلى سؤال بلا جواب : هل هذه هي اليمن حقا ؟! هل هذه أرض بلقيس وسد مأرب ؟! أمن هنا سارت الجحافل اليمنية تفتح الأرض فى سبيل الله ؟! لقد أنجبت هذه الأرض على طول الزمان أشجع رجال العرب ، وأشدهم بأسا على الإطلاق . واليمنى لا يعرف قلبه الخوف ، وهو إذا حارب دمر كل شيء أمامه أو دمر نفسه ؛ لأنه لا يعرف الانسحاب حتى ولو كان ( طبقا لخطة موضوعة ) ، كبلات الحرب هذه الأيام ! طيب ... إذا كان اليمنى الفرد

لا يعرف الخوف طريقه إلى قلبه ، وإذا كان المحارب اليمنى لا يتقهقر على الإطلاق ، فلماذا إذن تقهقر اليمن الوطن بضع مئات الألوف من السنوات إلى الوراء ؟! ولماذا انسحب اليمن الشعب لايلوى على شيء ، حتى أشرف على هامش الزمان والمكان ؟! واختلست نظرة إلى الحصن الذى يتوقع داخله الإمام . إنه فرد واحد ، ولكنه حقق النصر الحاسم على شعب بأسره وألحق به هزيمة منكرة ، وفشل فى ذلك عشرات القادة والجيوش على مر الزمان ! من هنا يبرز دور الفرد فى التاريخ .

وعشت أياما فى صنعاء ، لم نر فيها شيئا ولم نتصل بأحد .. حتى الذين حاولنا أن نتحدث اليهم كانوا يفرون من وجوهنا كأنهم أصحاء يفرون منا حتى لا نصيبهم بالجرب ! وعدنا من حيث أتينا ، لم نتعرف على اليمن ، ولم نتعرف علينا اليمن ! ولكن ظلت اليمن ماثلة أمامى لا تبرح خيالى قط . وتصورت أننى لن أرى اليمن فى حياتى . ربما سنحت الظروف لأبنائى أو أحفادى .

ولكن ، لأن زمن المعجزات لم يذهب بعد ، فقد حدثت المعجزة : مات الإمام أحمد وتولى الإمام البدر وقامت الثورة فى اليمن ! ثورة فى اليمن ؟! هذا هو الذى حدث ، وفر الإمام فى ملابس النساء ، وقامت الدنيا فى العالم العربى ولم تقعد بعد ! ذهب جيش مصر ليحوى الثورة فى اليمن . وذهبت جيوش المرتزقة والخونة لتعيد عقارب الساعة إلى الوراء . وأتيح للعبد لله أن يذهب مرة أخرى إلى اليمن . ولكنها كانت يمن جديدة ومختلفة . كانت المعارك على أشدها والشهداء يسقطون كل يوم بالمئات ، وبعض القبائل حولت حرب التحرير إلى مباراة ، فيوم هنا ويوم هناك ! وبالرغم من المعارك والدماء والمآسى ، استطعت أن اتعرف على اليمن . وذهبت مع اليمنى إلى الجبهة ، ولمست بنفسى شجاعة اليمنى على الجانبين . وغبت عن الوعي مع اليمنى أمضغ نبات القات . وجلست على مائدة اليمنى التهم ( أم الصدن ) . وخرجت بنتيجة باهرة : إن اليمنى لا يزال هو اليمنى بكل أصوله وصفاته ، لم نستطع الأمراض والجهل وحكم الإمامة أن تقضى على جوهره ، وإن قضت على

هيكله ! صحيح أن الجلد أصبح على العظم ، ولكن الذكاء الموروث ظل كامنا يبدو فى بريق العينين ، وعلى سطح الجلد نفسه ! .

ولقد أتيح لى أن أشهد بعينى رأسى نبض الحياة ، وهو يعود بالتدريج إلى جثة اليمن : مدارس جديدة ، ومستشفيات حديثة ، وشوارع شقت على عجل ، وساحات كانت أرضا مهجورة فى ظل الإمام . ورأيت أول جماعة من المهاجرين عادت إلى اليمن بعد الثورة . جاءت مستريية فى كل شيء ، لاتصدق أن الإمام قد انتهى . وهؤلاء الذين صدقوا نهاية الإمامة كانوا يعتقدون أن السلأل هو مجرد إمام جديد حل محل الإمام الذى سقط ! .

والتقيت بفتاة فى عمر الورد ترتدى البنطلون وبلوزة على اللحم ، جاءت مع المهاجرين لتشاهد بنفسها البعث الجديد فى اليمن . ولما أبدت دهشتى من وجود فتاة يمنية بالبنطلون ، قالت البنت وهى تضحك : لعلك لاتعرف أن البنطلون فى اليمن حق النساء ، أما التنورة فهى حق الرجل ! وقال لى ضابط مصرى كبير فى صنعاء : هذه حقيقة . وكانت أخطر إشاعة أطلقها رجال الإمام ضد جيش مصر تقول لأهل اليمن : انظروا إلى هؤلاء الجنود المصريين ، إنهم يرتدون البناتيل التى هى حق النساء ، إنها الدليل القاطع على أن هؤلاء الجنود أجانب وكفرة ، وليسوا من جنس العرب ! وقالت لى اليمنية المتبنطلة : أنا أعيش فى إفريقيا منذ عشرين سنة ، وغادرت اليمن وعمرى ثلاثة أعوام مع والدى الذى أثر الفرار من حكم الإمام إلى الغابات والوحوش الكاسرة . ولقد خرجنا من اليمن بلا شيء تقريبا ونحن الآن نملك ثروة لا بأس بها . والحق أقول : إن كل الذين هربوا من الإمام خرجوا بلا شيء تقريبا . ولكنهم استطاعوا بعد فترة أن يصبحوا أثرياء للغاية . فاليمنى ذكى وشجاع وصبور وقادر على التكيف مع أى بيئة والعيش فى أى مجتمع .

منذ ربع قرن تقريباً كنت فى طنجة ، وكانت طنجة دولية، وكانت تعيش فيها كل الملل والاجناس .. إلا جنس العرب : خواجهات على قفا مين يشيل ، وهنود بعدد النجوم ، وصينيون بعدد الحصى ، ويونانيون وقبارصة ، ويهود

أكثر من الهم على القلب ، وناس من مالطة ، وناس من جزر هاواي . ياميت ندامة على هذا البلد العربي ، ليس فيه عربى إلا سكانه وهم على ما يبدو جميعا من اتباع المرحوم غاندى ، فلا ملابس ولا مأوى ولا طعام ! ودخلت السوق فى القصبة ذات يوم وسألنى التاجر : هل أنت هندى ؟ وأجبتة بالنفى . فسألنى : هل أنت أسبانى ؟ وأجبتة بالنفى . فسألنى : هل أنت إسرائيلى ؟ ولما بدا الاشتمزاز على وجهى ، قال إذن أنت عربى ؟ فلما أجبتة بالإيجاب ، مد يده مصافحا وقال بلغة عربية سليمة : كيف حالك ؟ وطننته من أهل البلاد ، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه أخ عربى من اليمن . قال لى الأخ عبد الواسع : نحن هنا حوالى ثلاثة آلاف يمنى يعمل أغلبنا فى التجارة ، وبعضنا يعمل فى مجال الحرف !.

مرة أخرى منذ عشرين عاما كنت فى زيارة خاطفة لهونج كونج ، وأردت شراء بعض الملابس ، ولكنى ترددت فى آخر لحظة . وعندما سألنى رفيقى فى الرحلة عن سبب ترددى ، قلت له بالعربية : يظهر أنهم حرامية وغشاشون، وضحك التاجر واكتشفت أنه من اليمن ! ما أكثر الأخوة اليمنيين الذين تصادفهم فى طريقك فى كل مكان فى لندن ووارسو وباريس ومالطة ومدريد . وكلهم تاجر ، وكلهم آخر نجاح وآخر جدعنة ! واليمنى ظريف ولطيف ومهذب وناعم للغاية ، ولكنه أسد مفترس إذا لزم الأمر !.

كنت فى زيارة لعلى العواضى ، وكان وزيرا للحربية فى وقت ما بعد الثورة ، وكان الوزير فى جلسة قات مع بعض القادة ، حين دخل عليه ضابط برتبة صغيرة يبلغه نبأ القبض على أحد المفسدين . وقال الوزير على الفور : « بز رأس أبوه » ، وكان يقصد أقطع رقبته . ثم جلس يمضغ القات فى هدوء ! وعندما خرجنا من المنزل رأيت عددا من الصبية يلعبون برأس المفسد المقطوعة مباراة حامية فى كرة القدم !! وسألنى زميل فى الرحلة : الآن بدأت اليمن ، فكم من السنين تقدر لها لكى تصبح جوهرة لها شأنها فى فلاة العرب ؟ قلت : هذا يتوقف على أحوال العرب ، إذا بقيت هكذا على حالها وظل الحال

هكذا على عفونته فلن تقوم لليمن قائمة . قال زميلى : ليه ؟ قلت : هذه قصة أخرى ! .

...

ولكن يبدو أن نظرتى إلى مستقبل اليمن كانت تحمل كثيرا من التشاؤم . فأحوال العرب ازدادت سوءا ، وربما لم يشهد العالم العربى عصرا أسوأ من هذا العصر الذى نعيش فيه . لم يقف تقسيم المغرب العربى عند حد المغرب والجزائر وتونس وليبيا فقط ، زاد الخير خيرين فنشأت دولة جديدة هى الصحراء، وأضيفت إلى حكومات العرب حكومة جديدة هى الحكومة الصحراوية . وبينما تضاعفت أغانى الوحدة ازداد التقسيم ، حتى وصل إلى حد تقسيم مدينة بيروت إلى شرقية وغربية .

وبالرغم من ذلك حققت اليمن معجزة بكل المقاييس . تخلصت اليمن من نظام العشائر والقبائل ، ونفضت عن كاهلها حكم الأنمة ، وتحولت صنعاء إلى مدينة عصرية ، وفتحت المدارس أبوابها لاستقبال ألوف الصبيان والبنات ، ودارت المطابع تطبع الصحف والكتب والبحوث العلمية . وشهدت اليمن طفرة فنية وصار للفن اليمنى مكان محجوز فى أجهزة إعلام الأمة ، وأصبحت اليمن سندا ودعما لقضايا العرب . وما أصعبها فى عصرنا الحديث ! معجزة نادرة الحدوث ، ولكنها فى اليمن حدثت . وهى لم تحدث بسهولة ، ولكنها تعرضت لهزات ونكسات ، وأوشكت أحيانا على الإجهاض . ولكنها تغلبت . بالرغم من ذلك - على ظروفها الصعبة . وعاشت اليمن التى كانت سعيدة تحاول صنع المستحيل لتصبح سعيدة من جديد . معجزة ... نعم ، تحققت بفضل شعب اليمن ، وأيضا بفضل العسكرى المصرى المجهول ، الذى مات على قمم الجبال هناك ، وفى سهول اليمن الفسيحة . والمعجزة الأكبر أن شعب اليمن لم ينكر فضل العسكرى المصرى المجهول . كما حدث فى أجزاء شتى على اتساع الوطن العربى - فهم يذكرونه بالخير ، ويشكرونه دائما ، ويحمدون فضله ،

باعتبار أنه لولاه ، ولولا بندقيته التى سارعت فى بداية الثورة لحمايته ومساندته ،  
لولا هذه البندقية ، فربما كانت اليمن الآن فى طريقها إلى العصر الحجرى .

ولكن الحمد لله ، الذى أتاح لليمن ظروفًا مواتية ، مكنتها من تحقيق  
المعجزة . ولأن ماحققته اليمن معجزة ، فهى تحتاج إلى كتاب ضخّم وليس إلى  
فصل من كتاب . وهو وعد من ابن عطوفة إذا امتد بنا العمر ، وتوافر الوقت ،  
وتحققت أمنية قديمة للعبد لله ، وهى الطواف باليمن السعيدة ، قرية قرية ،  
ومدينة مدينة ، فى محاولة لاكتشاف جنس العرب . وباعتبار أن اليمن هى  
أرض العرب العرب . أما العرب خارجها - تاريخيا - فهم العرب  
المستعربون ! .

## آلة الزمن

وتركت اليمن ، التى ساءت أحوالها عما كانت عليه فى عهد سيدنا آدم ،  
إلى عمان . وكان السلطان سعيد بن تيمور لا يزال جاثماً على أنفاس  
شعبه ، وإن كانت كلمة (شعبه) لا تليق بوصف المخلوقات التى كانت  
يحكمها السلطان . لم يكن هناك شعب ، ولا حتى رعايا . وخيل إلى من أول  
نظرة ألقيتها على البلاد أن هؤلاء الناس مجرد أسرى طال بهم الزمن ، وأن  
عمان ليست وطناً وإنما معسكر اعتقال كبير ، وأن الداخل هنا مفقود  
والخارج مولود ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! .

وأصابتني دهشة شديدة لأن الريال العمانى يتمتع بقوة شرائية عظيمة . ولكن  
دهشتى تبخرت عندما اكتشفت أنه ليس فى السلطنة كلها من يملك ريالاً  
إلا السلطان ، وأن الريال يحتل فى أذهان أهل عمان صورة الأسطورة ، بل إنه  
أصبح لدى البعض منهم شيء أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفى ! دولة تعيش  
فى النصف الثانى من القرن العشرين ، بلا ماء ولا كهرباء ولا شوارع

ولا مقامه، ولا حدائق ولا مواصلات. وللمدينة سور يغلق عليها بعد غروب الشمس، فإن وصل إليها أحد بعد ذلك نام خلف السور حتى الصباح؛ وسيء الحظ هو من يطلع عليه الصباح ويتمكن من اختراق السور، لأنه سترك خرابة إلى خرائب أكثر، وسيفارق خلاء إلى خلاء أوسع، وسيهرب من الذئاب إلى من هو أكثر ضراوة من الذئاب، وهو السلطان!.

وفوجئت بأن كل شيء نادر وقليل في عمان، الماء والطعام والنقود. الشيء الوحيد الذي يوجد بوفرة هو الذقون، ذقون طويلة وكثة وغزيرة الشعر. والرجال جميعاً يتحلون بهذه الذقون ويدهنونها بالمسك والطيب! والشيء الآخر الذي يوجد بشكل أوفر من الذقون هو الأمراض السرية. فهي ترعى بين أفراد الشعب كحريق شب فجأة في غابة أصابها الجفاف منذ زمن طويل!.

ولقد مرت على فترة في صباى المبكر كنت أشعر فيها بأسف حقيقي؛ لأننى ولدت في القرن العشرين، وكنت أتمنى لو أننى جئت إلى الحياة في وقت ما من القرون الوسطى. ولكن عندما وقع بصرى على أرض عمان حمدت الله لأن أمنيتى لم تتحقق، ولأننى جئت في القرن العشرين، وفي بلد يطل عليه من قرب! فلقد شعرت لحظة دخولى مسقط أننى بعثت فجأة في مدينة عربية في عهد العباسيين! وأننى دخلت المدينة بعد ما دمرها التتار بوقت قصير! لم تكن مسقط مدينة بالمعنى المحدد للكلمة، ولكن كانت هناك بضع قرى متقاربة، ولم يكن في هذه القرى شيء يوحى بالحياة إلا الأحياء الذين يذبون على الأرض في إعياء شديد!.

والمرأة عورة لا يمكن أن تقع عين عليها، ولكن العالمون ببواطن الأمور يؤكدون أنها في (الواقع) أكثر حرية من بنات لندن وباريس! والمخدرات ممنوعة بأمر القانون، ولكن بالنظرة السطحية ستكتشف أن الشعب كله مسطول ومنسجم ومحل في العلالى مع دخان وضباب الحشيش! دخلت سوفاً مسقوفة وخيل إلى أن الباعة والتجار والزبائن جميعاً ممثلون كومبارس في فيلم عن عصر قديم! كان التجار يجلسون الواحد بجانب الآخر على الأرض،

يعرضون بضاعتهم في قفف، وهى بضائع مختلفة من الذهب إلى السمك، إلى التبغ، إلى الحلوة المسقطية، إلى الموز، وهو موز إفريقى يكفى أن تضرب بواحدة منه عدوك فيسقط قتيلاً في الحال! والناس أقرب إلى الهنود منهم إلى العرب، وإحساسهم بالانتماء العربى يكاد يكون منعماً. والسبب هو حكم السلطنة الذى توجه بالصلوات نحو الهند وباكستان، وتوجه بالركوع والسجود نحو إيران! ولذلك ستجد أن أكثر الأغاني هندية، وأكثر المصنوعات إيرانية، وأغلب العادات إفريقية، خصوصاً إفريقية الشرقية السوداء!.

ولطمت على خدى حزناً على المصير الذى انتهت إليه أرض عربية كانت درة في تاج العروبة، وكانت حجر الأساس في صرح العروبة وإلى زمن طويل! فإلى هذه البلاد كان ينتمى أعظم حكام إفريقيا الشرقية من دار السلام وزنجبار أو (بر الزنج) كما كان يطلق عليها أيام المجد القديم! وإلى هذه البلاد أيضاً كان ينتمى آخر الملوك العرب في الكونغو أو ما يعرف الآن بـ زائير، وهو الملك (تيتوبيو)، وكانت كاتنجا هى عاصمة ملكه، والذى داس الجنود البلجيك عرشه عندما دخلوا الكونغو منذ حوالى مائة عام لا تزيد! وهذه البلاد نفسها هى التى فرضت إتاوة على السفن البريطانية خلال رحلتها من الهند وإليها. وهى التى حطمت أسطول البرتغال فى مياه الخليج، واستولت على كنوزه ومئات الأسرى الذين لا يزال أحفادهم يعيشون حتى الآن فى إمارة رأس الخيمة، ويعرفون هناك باسم (الشوح)!.

ما الذى جرى حتى حدث هذا للبلد الذى كان يوماً ما أقوى دولة بالمنطقة، فأصبح الآن يستعين بالعساكر الأجانب لحماية عرش السلطان من غضبة الشعب المطعون؟! ما الذى جرى لصنف العرب حتى أصابهم كل هذا العطب؟ ولماذا صنف العرب وحدهم هم الذين تأخروا، بينما العالم من حولهم ينطلق فى ثقة إلى الغد السعيد؟! إنها الفجوة التى حدثت بين بعض نظم الحكم فى أجزاء من الوطن العربى والناس الذين أوقعهم سوء الحظ تحت حكم هذه النظم. ففى اليمن كان السبب هو الإمامة. وفى عمان كان السبب هو السلطنة.

وسلطان عمان كان يتمتع بجهل إمام اليمن، ولكنه لا يتمتع بذكائه! كان الإمام ذكياً رغم كل شيء وكان قوياً أيضاً. بينما سلطان عمان كان أغبى من ثور، وأضعف من ذبابة! وكان الخطر الحقيقي يهب عليه من أجزاء أخرى في الوطن العربي.. أجزاء أخرى تحررت وهبت تصارع لتلحق بقطار الزمن الذي يكاد يغادر محطة القرن العشرين! لذلك عمد السلطان إلى إضعاف اللغة العربية حتى لا تقلق الإذاعات العربية أسماع مواطنيه، وشجع لغات أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة. وانتهى بعد ذلك إلى إخفاء المدن خلف أسوار متينة البنيان، ثم إلى دفن البلد كله تحت تلال هائلة من الفقر والجوع والخرافة. ثم تتويج هذا كله بجهاز قهر مدرب، ولديه كل الامكانيات، وله كل الصلاحيات لقتل كل من تلوح عليه علامات الرفض أو المعارضة، وحتى عدم الموافقة على ما هو كائن، باعتبار أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان!.

وبالرغم من الخيبة التي هي بالويبة، والوكسة التي هي أعظم من النكسة، فقد رأيت في عمان مالا عين رأت ولا أذن سمعت، حضرت سوقاً للرفيق يباع فيه العبيد في المزاد! كانت البضاعة المعروضة عدة رجال، وعدة نساء، وعدداً قليلاً من الأطفال. وكان المشتري يتقدم من الطابور البائس يتحسس البضاعة قبل أن تبدأ عملية المساومة بين البائع والراغب في الشراء! كان الأطفال هم البضاعة المرغوبة، ثم النساء. وكان القطيع البائس أغلبه من إفريقيا. ولم تكن النساء المعروضات من النوع الذي يصلح للمتعة، بل كن جميعاً من الصنف الذي يصلح للخدمة. ولذلك فقد كان المشتري الذي تقدم ليدفع الثمن، من رجال السلطان. وهؤلاء النسوة سيقرن بالخدمة في حريم السلطان، فقد كانت الخدمة وفقاً على الحريم الأفارقة، أما المتعة فكانت من نصيب الأتراك والهنود وبعض النسوة من سنغافورة وأندونيسيا وسيام! وكان ثمن البني آدم الحي الذي تجرى الدماء ساخنة في عروقه ثلاثين ريالاً عمانياً لا أكثر ولا أقل! هذا للرجل أو المرأة. أما الطفل فكان ثمنه يزيد قليلاً، حتى يصل إلى الخمسين ريالاً. وعندما انفض السوق، كان التاجر قد تبقى معه عدد من الأرقاء، بعضهم كبار السن ربطهم جميعاً في حبل، وافترش الأرض معهم

وجلس يعد النقود، ثم نهض يسحب قطيعه خلف ظهره في رحلته إلى المجهول في بلاد السلطان!.

وقادني رفيقي ذات ليلة الى منزل منعزل في حي الهنود حيث تدور ليالي المتعة للأجانب المقيمين في مسقط. واستقبلتنا امرأة هندية بدينة تتحلى بمصاغ من ذهب لو تحلى به جمل لما استطاع أن يسير! وأدخلتنا المرأة حجرة عارية من الأثاث فجلسنا على حصيرة مفروشة وعليها بعض الوسائد المتناثرة هنا وهناك، ثم دخلت فتاتان هنديتان تدوران حول الرابعة عشرة وربما أقل من ذلك بعدة شهور. ونظرت إلينا الفتاتان في غباء شديد، ثم تعرتا تماماً في هدوء. وراحت إحدهما تعزف على آلة، بينما راحت الأخرى ترقص وقد بدا عليها التوتر والخوف الشديد! وفي ليلة أخرى سحبني رفيقي من يدى إلى بيت آخر، في حي اليمنية حيث دخان الحشيش يعبق في كل أرجاء البيت، وعدد من المدمنين من أهل البلاد يدخن بشراهة صنفاً هندياً رديئاً لو دخنه حمار لنام مكانه يتثائب لمدة عام! وقال صاحبي الذي كان على علم شديد بأحوال البلاد والعباد في عمان: لو كان في السلطنة مستشفيات بعدد هذه البيوت لصارت عمان واحدة من أعظم البلدان.

وكان رفيقي في السفر تاجراً كبيراً من دولة الإمارات. ودخلت عمان معه باعتباري سكرتيره الخاص، والجنسية فلسطيني الأصل من عكا، والاسم (أحمد الترماني العكاوي). وكان التاجر العربي على صلة وثيقة وطيبة بحكام البلاد. وبالرغم من ذلك كان شهماً الى الحد الذي جعله يقبل بهذه المغامرة. ولو انكشف أمرى هناك لفقدت رأسي إلى الأبد، ولقد هو الآخر رأس ماله الذي يصل في عمان إلى سبعة أصفار! كان الرجل رغم غناه يحب عبد الناصر بجنون، وكان يرى فيه فتى العرب القومي، وصوت العروبة المعبر، وذراعها الممدودة في وجه الأعداء. وكان يعتقد أنه لولا عبد الناصر لابتلعت المنطقة إيران. كنا نجلس وقتها في بيت المخدرات. ولذلك انطلق الرجل يتكلم دون خوف. فهنا المكان الوحيد الذي لن يستمع اليك فيه أحد؛ لأن الكل هنا مسطول



وضائع، وآخر انسجام! وبينما كانت حلقات الدخان تنعقد فوق رؤوسنا داخل البيت الصغير في ضواحي مسقط، كانت مدافع الثوار تنطلق في رأس الجبل الأخضر. وكانت رائحة البارود تختلط برائحة الحشيش في مسقط! ثم فجأة جاء قابوس. واستبشر الناس خيراً. وكان قابوس عند حسن ظن الناس، واستطاع بمعجزة نقل عمان من القرن الأول الميلادي إلى القرن التاسع عشر.

• • •

ولسوء الحظ لم أشاهد عمان في وضعها الجديد، ولكنني استطعت أن أدرك عمق التغيير الذي حدث هناك. وكانت وسائلنا إلى معرفة هذا التغيير وسائل غير تقليدية. شاهدت فريق عمان في كرة القدم في دورة الخليج عام ١٩٧٦، ثم شاهدته في دورة الخليج عام ١٩٧٨، ثم شاهدته في دورة ١٩٨٠، ثم في دورة ١٩٨٢، ثم في دورة ١٩٨٤، ثم في دورة ١٩٨٦. وأشهد أن التطور الذي حدث في فريق كرة القدم لا يمكن حدوثه في أرض خراب. ليس هذا فقط، ولكنني أرشح فريق عمان إلى بطولة دورة الخليج القادمة، وأرشحه للمنافسة على بطولة آسيا القادمة! معجزة لا شك، خصوصاً إذا علمتم أنه في عهد سعيد بن تيمور كان لعب الكرة جريمة، وكان ارتداء زى الكورة رجز من عمل الشيطان!.

وسيلتي أيضاً لمعرفة ما جرى في عمان، هي فرقة عمان المسرحية، وقد اشتركت في مسابقة مسرح الخليج لعام ١٩٨٧. وبالطبع فازت الكويت بالجائزة الأولى، وفازت الإمارات بالجائزة الثانية، وفازت قطر بالجائزة الثالثة. طيب.. وأين فرقة عمان؟ لقد حققت ما هو أخطر من الجوائز. فازت الممثلة (منى) من فرقة عمان بجائزة أحسن ممثلة. يا سبحان الله. منذ خمسة عشر عاماً كان اسم المرأة عورة، وكان خروج المرأة إلى الشارع يجلب النحس للجميع. وكان (التشخيص) عملية كفر بالله وخروج على ناموسه! لدرجة أن مراسلاً أجنبياً زعم في تحقيق صحفي عن عمان، أنها البلد الوحيد على ظهر الأرض الذي يحتفل بزواج الذكور! ربما كانت مبالغة أو أكلوبة من

جانب المراسل الأجنبي، ولكن المرأة في عمان لم يكن لها مكان إلا في مطبخ البيت، وغير مسموح لها بالقيام بأى رحلة إلا رحلتها النهائية إلى القبور. ولك أن تتصور ما الذي حدث في عمان إذا عرفت أن فتاة من بناتها حصلت على جائزة أحسن ممثلة في مسابقة مسرح الخليج.

الوسيلة الأخيرة التي كانت دليلى إلى التغيير الذي حدث في عمان هي أحاديث الأصدقاء الذين عملوا في حكوماتها وقضوا سنوات هناك. أحدهم هو الصديق الكريم المستشار صلاح نصار. كان وصفه لعمان شديد التركيز، وفصيح التعبير أيضاً. قال وهو يتحدث عن تجربته هناك: بلد يلتقي فيه القديم والجديد، ويأخذ أحسن ما في القديم، وأفضل ما في الجديد، وسيصنع من هذا المزيج شيئاً رائعاً وغير مسبوق في يوم من الأيام.

إن ما حدث في عمان هو (حالة)، وهي كأي حالة تحتاج إلى مراقبة ومتابعة وفحص. وهو إجراء يحتاج إلى وقت. ولأننا لا نملك هذا الوقت، فنحن لا نستطيع أن نقدم تقريراً طبياً يشخص الحالة، ويمكن الاعتماد عليه. ولكن كل ما نملك قوله عن حالة عمان: إنها بلد كان مصاباً بواحد من أخطر الأمراض المستعصية، ولكنها تمكنت من الخلاص منه، وإن كانت لا تزال تعاني من آثاره، ولكنها في طريقها إلى الشفاء التام، وقد يستغرق الشفاء وقتاً، ولكن الأكيد أنها ستشفى. معجزة.. أليس كذلك؟!

وعندما نزلت العين ( قسم من أقسام البوريمى ) كان الشتاء يزحف نحو النهاية ، ولكن الجو كان دافئا والشمس تلعلع فى العلالى ، وعيون الماء تجرى تحت الأقدام . وثمة مزروعات ولكن قليلة . والناس تهمهم ولا تتكلم . ومقهى واحد ورواد قلائل ، ولكن يبدو من المنظر العام أنهم فى المقهى وفى أماكنهم منذ مائة عام !! ولكنى بعد يوم واحد فى العين اكتشفت أن هؤلاء البشر الذين تصورت أنهم يغطون فى النوم ، قوم أذكىاء وأنهم عرب ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة . فما العمل ، والشيخ شخبوط يركب آلة الزمن ويطلقها بأقصى سرعة إلى الوراء ؟ .

ولقد ألهمتني هذه الزيارة السريعة سلسلة إذاعية تحت عنوان ( الشيخ لعبوط يتلعبط ) : قصة رجل ضايع ذهب إلى لندن للعلاج ، فألقت القبض عليه مخابرات بريطانيا ، ونقلته إلى دار الضيافة ، وحددت له موعدا مع الملكة . ولما حاول الرجل الاستفسار عن سر هذه ( العملية ) الغريبة ، جاءه الجواب بأن مخابرات بريطانيا لاتفوتها واردة ولاشاردة ، وأنه مهما حاول التخفى والتكرار فكل شيء يمكن اكتشافه ، خصوصا لدى مخابرات بريطانيا . وأفهموه أنهم عرفوا حقيقته منذ أول لحظة صافحت فيها قدماء أرض لندن ، فهو الشيخ لعبوط ولا أحد سواه ! وحاول الرجل التخلص من هذه الورطة دون جدوى ، فقد وقعوا معه معاهدة ، وتولى تأليف حكومة ، وقدم طلبا للجامعة العربية ، وأصدر بيانا مشتركا مع الشيخ فلحوظ يدعو فيه إلى السلام العالمى والسلام الملكى والسلام الوطنى .. والسلام عليكم ورحمة الله !! ولقد ذاعت هذه المسلسلة وشاعت فى كل أرجاء الخليج . واعتبر كل شيخ أنه المقصود بهذه السخرية المرة . والواقع أننى لم أقصد أحدا معينا على الإطلاق ! والمنظر الذى رأيته فى العين خلال تلك الزيارة القصيرة ، التى مرت فى حياتى كالحلم ، كان حلما فظيعا كالكابوس ! .

ويبدو أن السماء قد استمعت إلى دعائى ، فقد أطاح الشيخ زايد بالشيخ شخبوط وتولى السلطة مكانه ، وقالت الناس : شيخ آخر جديد ! وما الذى يمكن

## الشيخ لعبوط

ولقد خرجنا من أرض الظلمات بأعجوبة . وقطعناها من مسقط إلى واحة البوريمى على حدود الربع الخالى ، صحراء العرب الميتة التى اكتشفها نيابة عنهم عدد من الرواد الأجانب! وكانت البوريمى موضع نزاع لحظة أن وصلنا إليها ، الشيخ شخبوط يقول : إنها من أملاكه ، والملك سعود يطالب بها أيضا ، وسعيد بن تيمور له حصة فيها ويحمد الله على ذلك ! وكان شخبوط حاكما من طراز فريد . كان الحاكم القوى فى رأيه هو الحاكم الذى يعاقب الرعية ، وكانت السياسة عنده هى العناد . ولم يلحظ الشيخ شخبوط عمق التغيير الذى طرأ على العالم . وبالرغم من تفجر الأرض تحت قدميه بالنفط ، وبالرغم من امتلاء خزانته بأوراق النقد - ولم يكن هناك أى فرق بين خزانة الدولة وخزانة شخبوط - إلا أن إمارة أبوظبى ظلت على حالها . فالسعيد من أهلها من يجد تمرا . والمحفوظ هو من يصادف عين ماء ، أما من انفتحت لهم طاقة القدر ، فقد تمكنوا من الهروب من قبضة الشيخ شخبوط ! .

أن يفعله زايد في هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، وبين هذا العدد القليل من الناس ؟! ولكن - والحق أقول - زايد كان شيئا آخر مختلفا . ولقد اكتشفت السلطة الجديدة شيئا لا يمكن أن يصدق عقل . ففي خزانة الشيخ شخبوط عثر الشيخ زايد على أوراق نقد ، كل ورقة تحمل رقم مليون دينار . وقد تم طبع هذه الأوراق في بنك إنجلترا ، وبطلب خاص من الشيخ شخبوط . وكانت هذه الأوراق هي ثمن بواكير النفط الذي بدأ يتدفق من أرض الإمارة ! ولم يكن شخبوط يعلم أن للنفود وظيفة سوى دفنها في الخزائن ! وقيل إنه كان يفتح الخزانة المتخمة بملايين الدينارات ويهتف صائحا : « غرى غرى » !! فقد كان يعتقد أيضا أن آبار البترول هي ملك خاص به ، وأنها هدية السماء له هو شخصيا ! أما شعب الإمارة ، أما شعب الإمارات ، أما شعب العرب ، فلكل فرد منهم رب يحميه !

ولقد قدر لى أن أعود مرة أخرى إلى الخليج ، ولم تكن قوات بريطانيا قد تخلت عن قواعدها بعد . ولما كان حصول العربى العادى على تأشيرة دخول إلى الخليج شيئا دونه ضرب الرقاب ، فما بالك بتأشيرة دخول للعبد لله ؟! ومن سجننى هناك دخل الجنة وعلى رأسه قنديل ، ومن قتلنى دخل الجنة وعلى رأسه قنديلان .... والله أعلم ؟! ولكنى استطعت ، بالرغم من كل شيء ، دخول الخليج ووضعت اسمى فى طلب تأشيرة دخول جماعية لفريق كرة قدم مصرى كان فى طريقه إلى لعب بعض المباريات مع أبناء الخليج . وضم الكشف أسماء أمهر لعبة كرة القدم فى مصر : شحطة وأبو جريشة ورفعت الفناجيلى ومصطفى رياض والعربى ومحمود السعدنى .. وآخرين ! وهكذا عدت إلى إمارة أبوظبى صحفيا فى ملابس كرة القدم !

وفى الليل جاءنى المستشار الصحفى السابق للشيخ زايد ، رجاء مكاوى ، وقال : الشيخ زايد فى انتظارك . وتصورته لقاء عاصفا بين الشيخ الجديد والصحفى الذى هاجم أخاه . ولكنى اكتشفت ، بعد أول دقيقة من اللقاء أن كل ماتصورته كان وهما ، فها هو الشيخ زايد جالس على الأرض يحدق فى وجهى

طويلا ، ثم يقول : أنت هاجمت الشيخ شخبوط ، ولكن أنا خلعتة ! وراح الشيخ زايد يتحدث عن أحلامه ، أو أوهامه - كما تصورت ! ها نحن الآن - والحديث لزايد - نضع أقدامنا على أول الطريق ، وسنبنى أبوظبى ، ليس من أجل أبوظبى ذاتها ، ولكن من أجل قيام دولة واحدة كبرى من جميع إمارات الخليج ، دولة تضم حتى البحرين وقطر وإمارات ساحل عمان المتصالحة . وجهودنا لن نتوقف عند هذا الحد ، بل ستكون هذه الدولة مجرد نواة لدولة الوحدة التى نحلم بها جميعا ، والتى تمتد من طنجة إلى صنعاء ، ومن كركوك إلى جوبا . وراح يتحدث عن أبوظبى التى يحلم بها ، أبوظبى المدارس والمسكن والشوارع والساحات والمستشفيات والجامعات والموانئ والمطارات . وشد الشيخ زايد على يدى ، وقال وهو يودعنى : أرجوك أن تعود إلينا بعد بضع سنوات ثم احكم لنا أو علينا . إننا سنعمل على مهل وفى تودة ، لأن المثل العربى يقول : « الحصان القوى يتأخر فى بداية السباق » . والمثل العربى يقول أيضا : « المليح يبطىء » !

ولقد جرى هذا اللقاء مع الشيخ زايد ذات مساء فى أواخر ١٩٦٧ . ولم يكن فى أبوظبى كلها فندق ، ولم يكن فيها معالم ، حتى مباراة كرة القدم التى جرت بين الفريق المصرى والفريق الطبىانى جرت على أرض خراب ! وقلت فى نفسى : كيف سيتمكن الشيخ زايد من تحقيق أحلامه مهما أوتى من حسن النية وعلو الهمة ؟ صحيح النوايا طيبة ، ولكن الواقع مر ! وصحيح الحصان الجيد يتأخر فى أول السباق ، ولكن أين هو السباق ؟!

وكان الرجل الثانى الذى التقيته فى أبوظبى شابا عربيا حتى النخاع ، نكرنى بهؤلاء الرجال الأوائل الذين قامت على أكتافهم دولة العرب فى الزمان الخالى . كان محدثى هو أحمد خليفة السويدى ، وكان يشغل منصب رئيس الديوان الأميرى . ولم يكن هناك ديوان بالمعنى المعروف ، ولكن بعض الموظفين وبعض الأوراق . وكان السويدى يحلم هو الآخر بدولة تمتد من البحرين إلى رأس الخيمة . وقال فى هدوء شديد وبلا أى انفعال : نستطيع أن

نقيم مثل هذه الدولة في عهد زايد ، فهو من هذا الطراز من الرجال الذين ينظرون إلى بعيد ، وهو حاكم بالموهبة ووحده بالفطرة . وهو عربى من أصلا ب عربية يحلم دائما بدولة العرب الكبرى حيث الراية الواحدة والجيش الواحد الذى يزحف فى كل اتجاه لتكون كلمة الله هى العليا . وكان هذا هو الجانب المشرق فى إمارة أبوظبى .

وعلى الناحية الأخرى ، كانت هناك جماعات أخرى مشغولة باغتراف كنوز الذهب التى لا تتضب ، ولسان حالها يردد : « هذا من نفط ربى » ! كانت بواكير الثراء قد ظهرت على البعض ، وجنون النفط يسرى فى الإمارة الصغيرة كالنار فى الهشيم . وكان على الشيخ زايد أن يقاتل فى كل الجبهات : الانجليز المستعمرين ، والوافدين الطامعين ، ونماذج من أهل البلاد تريد الاستئثار بالثروة والسلطة معا . ولكن شابا عربيا من فلسطين قال لى وهو يفرك يديه سرورا : سينتصر زايد فى النهاية . وكان الشاب الفلسطينى العربى يخطو خطواته الأولى على أرض أبوظبى ، وقد افتتح لنفسه مقهى على الشاطئ ، ونثر بعض المقاعد على الرمال ، وبدأ يستقبل بعض الرواد فى أمسيات الصيف الخائق . قال لى ( أبو طافش ) : الشيخ زايد عربى أصيل ، ولذلك ستتحقق أحلامه . لقد جاء إلى هنا وجلس على هذا المقعد ( وأشار إلى مقعد غير بعيد ) ولما عرف أنني عربى من فلسطين ، شجعنى بكلمات حلوة وبمبلغ من المال ، وقال لأفراد حاشيته : « عاونوه جميعكم وذللو له العقبات ، إننى أريد للإمارة وجهها عربيا حقيقيا ، وأى عربى هنا هذه بلاده . إن الخطة الجهنمية لأعدائنا هى تعريب الحكم وتدويل الشعب . ولكننا عازمون على تعريب الحكم والشعب معا » .

وقضيت أسبوعا فى إمارة أبوظبى انتقل بين كثبان الرمال والجرافات الضخمة تعمل بلا هواده لتمهيد الأرض ، وأنوار المراكب التى ترسو بالقرب من الشاطئ . ولا أقول من الميناء ، فلم يكن ثمة ميناء بعد - تقيم مدينة كبرى داخل الخليج . وبعض العمال من بلاد بعيدة غربية ينحنون على الأرض فى

عمل دائم ، وأموال كالماء تنساب على الرمل . ولما أبديت ملاحظة حول ضخامة الأموال التى تنفق ، همس مرافقى فى أذنى : هذا على أى حال خير من كنزها فى خزائن من الصلب .

لقد قدر للعبد لله أن يرى الحياة وهى تنشأ على أرض الإمارة . ولقد واصلت النشوء رغم العقبات والمعوقات والمؤامرات فى الداخل والخارج . وبالرغم من جندى الحدود الذى استوقفنى على بعد أربعين كيلو مترا من قصر الشيخ زايد ليفتح حقائبى ويتفحص جواز سفرى ويلقى على وجهى نظرة مريبة ، فقد كنت فى طريقى إلى إمارة دبى ، وهتفت من شدة الغيظ : « يارب الجنود ، متى تهلك هذه الحدود ؟ » .

• • •

ويبدو أن الله قد استجاب لدعائى ، فبعد سنوات قليلة انهارت الحدود والسود بين الإمارات السبع ، وكان ذلك فى مصلحة التجارة وحركة المال ، وصارت الطرق سالكة بين أبوظبى ودبى ، وعجمان وأم القوين ، والفجيرة ورأس الخيمة ، وبينها جميعا والشارقة . وصار زايد أميرا للدولة الجديدة ، ورأشد بن مكتوم نائبا للرئيس ، وجميع الحكام أعضاء فى المجلس الأعلى الذى يحكم الدولة . وتسابق المهاجرون إلى الدولة الجديدة التى تحولت فى سنوات تعد على أصابع اليد إلى واحدة من أهم الدول العربية . وصار الشيخ زايد حاكما محبوبا لدى الجماهير العربية ، فهو لم يشترك فى أى مشاكل عربية ، وهو دائما حاضر معهم بالمدد فى حروبهم ، وبشخصه فى مشاكلهم . وانشقت الأرض فى دولة الإمارات عن ثلاث مدن جميلة : أبوظبى ودبى والشارقة . وامتدت الحدائق واتسعت ، وصارت أبوظبى - للعجب - أكثر اخضراراً من تونس الخضراء . وعندما زرتها آخر مرة فى عام ١٩٨٥ وقفت مبهورا لأصدق ما أرى ، لقد صارت الأرض المهجورة أجمل مدينة على إتساع الوطنى العربى !! .

ولكن مأساتنا نحن العرب أننا نبدأ المشاوير ، ثم ننتابنا الملل فننتوقف ، مشروع الوحدة فى دولة الإمارات ، صار وحدة فى ( الشكل ) أكثر منها وحدة

فى ( المضمون ) ، وتضخمت المشاكل بسبب أطماع الحكام وضيق أفق بعض المسؤولين وشراة بعض المستفيدين ، فتوقف الاتحاد عند فتح الحدود وتوحيد مناهج التعليم ، وفيما عدا ذلك ، فكل إمارة لها جيشها الخاص وإعلامها المستقل !.

وفى أبوظبى مثلاً تليفزيون ومحطة إذاعة ، وفى دى تليفزيون ومحطة إذاعة ، والشارقة تستعد لافتتاح محطة تليفزيون ، مع أن المسافة بينها وبين دى ، كالمسافة بين مهبط الطائرات فى أى مطار وموظف الجمارك ! وأشهد أن الصحافة فى الإمارات متقدمة ، وتعتبر من أنشط الصحف العربية ، ولكن فى أبوظبى أربع جرائد يومية وسبع مجلات أسبوعية ، وفى دى جريدة يومية ، وفى الشارقة جريدة يومية ، مع أن عدد القراء فى الإمارات لايزيد على خمسين ألف قارئ فى عموم دولة الاتحاد ! ولهذا السبب أهدرت أموال كثيرة ، وتبددت جهود ضخمة .

وحتى الأسعار اختلفت من إمارة إلى أخرى ، وفى بعض الأحيان وصل إيجار الشقة فى أبوظبى مائة ألف درهم فى العام ، ووصل إيجارها فى دى ستين ألف درهم ، وفى الشارقة وصل إيجار الشقة ثلاثين ألف درهم ، وتستطيع أن تستأجر نفس الشقة فى عجمان بعشرة آلاف درهم ... لاتزيد ! ولكن يبقى الشيخ زايد وسط هذا الهم كله متمسكا بالاتحاد ، حريصا عليه ، إلى درجة أن أغلب ميزانية الاتحاد من جيبه الخاص . وبالرغم من المتاعب والمشاكل فى دولة الاتحاد ، إلا أنه سعيد الحظ من العرب من يقيم فى دولة الاتحاد ، وأسعد منه من يزورها فى الشتاء ! .

وإذا كان عمن ابن خلدون قد التفت إلى ملاحظة هامة للغاية فى مقدمته الشهيرة ، عندما قال : « وآفة العرب حب الرئاسة » ، فإن هذه الملاحظة الذكية ستجد لها تطبيقاً عملياً على أرض دولة اتحاد الإمارات . وثبت أننا نحن العرب لانستطيع أن نتوحد حتى فى رقعة من الصحراء ليس فيها إلا سبع مدن جميلة وشعب طيب !.

## الأرض يتتكم .. (هندى) !

هناك نكتة مشهورة ، وهى أن حكومة أجنبية أرسلت أحد رجالها فى بعثة لدراسة اللغة العربية ، قبل تعيينه ممثلاً لها فى إمارة دى . وبعدما استكمل تعليمه ، وأتقن اللغة العربية ، سافر إلى دى ، وبعد أسبوع من إقامته هناك ، أرسل برقية هذا نصها : لقد حدث خطأ ما ، لا أحد هنا يتكلم العربية (إلا الحاكم) وهذه النكتة صحيحة رغم كل شيء . فعندما دخلت دى من الناحية الغربية ، تصورت أننى فى أصفهان . وعندما دخلت قسمها الشرقى تصورت أننى فى مدينة من مدن الهند . عليك لكى تتفاهم فى دى أن تتقن الهندية أو الفارسية . أما العربية فستحتاج إليها إذا كنت ستقابل الأمير .

ولقد فوجئت حقاً لحظة دخولى دى . فهذه مدينة حقيقية ، فيها مظاهر عمران ، وتقدم كل الخدمات . وهى شديدة الشبه ببيروت فى الخمسينيات . وفيها إدارة ذكية وحازمة ونشطة . وليس فى الإمارة نفط ، ولكنها استغنت عن النفط بنظام تجارى مفتوح يسمح بالتهريب والتعليب ، ولكن وفقاً لخطة موضوعة .

كانت تلك هي الحال في دبي عام ١٩٦٧ حين صافحت قدامى أرضها أول مرة، ولكن.. لأن قوانين الطبيعة لا تخطيء، ولأن كل فعل له رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه، فقد التقيت بحركة ثورية في دبي.. تصوروا حركة ثورية؟! وهي حركة مشاركة فعلية في الأحداث، ولها صوت مسموع رغم أنها تعمل في الخفاء، وتركز همها على قيام دولة الاتحاد.

وقال لي أحد زعماء الحركة العربية الثورية في دبي: إننا نعمل هنا على أرض صلبة، فكل العرب في هذه الإمارة معنا، صحيح أنهم أقلية، ولكنهم الرأي العام! أما الأغلبية الأجنبية فهي ليست معنا، كما أنها ليست ضدنا، لأنها تعمل في واد آخر معزول. أما الأعداء الحقيقيون، فهم الأجانب الذين استعربوا، وهؤلاء ليسوا ضدنا نحن فقط، ولكنهم ضد العرب بوجه عام وضد أي اتحاد بين الإمارات، كما أنهم ضد أي اتصال بالوطن العربي! وقال لي الشاب العربي الثائر ونحن نجلس ذات مساء على شاطئ الخليج: تصور، لقد فتشوا أمتعتك وأنت في طريقك إلينا من إمارة أبوظبي، وسيفتشونك مرة أخرى وأنت في طريقك من هنا إلى إمارة الشارقة، رغم أن بيننا وبين الشارقة خمسة عشر كيلو متراً لا تزيد. وسيفتشونك بعد ذلك بين كل إمارة وأخرى رغم أن عجمان تبعد عن الشارقة ثلاثة كيلو مترات! هل يتصور أحد أن وضعاً مثل هذا يمكن أن يستمر؟ ولذلك فنحن واثقون من النجاح رغم الصعوبات والأخطار..

• • •

ولقد خرجت من دولة دبي، أو إمارة دبي إلى دولة الشارقة على مرمى حجر.. تصوروا؟! وعلى الحدود راية مختلفة، وعساكر شرطة، ورجال جمارك، مع أن الجميع يتكلمون العربية ويدينون بالواحد القهار، ويؤمنون بالعروبة، ويهتفون للوحدة التي ما يغلبها غلاب! والحق أقول إن معاملة عساكر الشارقة كانت ودية، والناس في الشارقة أكثر طيبة، لأنهم أقل اشتغالا

وتستطيع أن تشتري في دبي كل شيء، الذهب والسلاح والحشيش وجواز السفر. فلا شيء هنا ممنوع مادمت تدفع الثمن، وما دام التاجر يدفع النسبة المطلوبة. الشيء الممنوع هنا، هو أن تكون نصاباً أو شحاتاً، أو جيوبك خالية من النقود. وميناء دبي الذي يبعد بضع ساعات عن ميناء بندر عباس، مفتوح كأبواب جهنم لاستقبال ألوف الوافدين من كل مكان، من إيران والهند وإفريقيا وباكستان.

وستجد في دبي قرى هندية بأكملها، وستجد أحياء إيرانية بأكملها، وأسواقاً كاملة ليس فيها سوى صنف البلوش! ولكن أخطر من ذلك أن أغلب الذين يرتدون الدشداشة والعقال ويتاجرون بالملايين ويتكلمون العربية بفصاحة، هم في الأصل ليسوا عرباً، وليس فيهم من العروبة إلا الزى واللسان، وهؤلاء يحاربون أي محاولة للوحدة، ويقفون في وجه أي خطوة نحو التقارب الحقيقي بين الإمارات. إن التمزق هو ضمان بقائهم الوحيد، وأي وحدة حقيقية فيها تهديد مباشر لمصالحهم، وهي بداية النهاية بالنسبة إلى وضعهم المميز والفريد. ذات يوم ذهب صحفي عربي يعمل في جريدة تصدر في إمارة قريبة، والتقى بمسئول كبير في دبي، وعندما وجه إليه سؤالاً محرراً، نظر المسئول إلى الحراس، فقاموا بجر الصحفي من رجله إلى الشارع، وتركوه في وحل الطريق بلا سؤال ولا كلام!.

و ذات مرة هبط الإمارة شاعر أرزقي مغمور من لبنان، وطلب مقابلة مسئول كبير. وعندما جلس الضيف أمام المسئول، فتح حقيبته الأنيقة، وأخرج منها قصيدة عصماء في مدح صفات المسئول وكرمه وعظيم أخلاقه، فما كان من المسئول إلا أن انتزع القصيدة من يدي الشاعر ومزقها، وقال له: ظننت أن معك مشروعاً تجارياً تريد أن تبحث تفاصيله معي، أما الأمر كذلك، فأنت محبوس حتى تغادر هذه البلاد! فالقاعدة في دبي.. التجارة أولاً ثم الصحافة والشعر والفن والكلام الفارغ!.

وانشغالا بالمكاسب والتهلبي والتجارة.

كانت الشارقة لحظة دخلتها قرية متواضعة، وأحوال سكانها أكثر تواضعاً من القرية، وأميرها الشيخ خالد أكثر تواضعاً من القرية ومن الناس. ورغم كل شيء كانت الشارقة نقطة مضيئة في بحر السواد الشامل، فأغلب أهلها تلقوا قدراً متفاوتاً من التعليم. والبنت الشارقة لا تختفى في عباءة، وهي تذهب إلى المدرسة وتعمل أحياناً، وهي تقرأ وتكتب في جميع الأحوال. ولم يكن في الشارقة أحد من صنف الهنود أو الفرس، وكان بعض أبنائها يحاولون العمل في الصحافة، ولكن في الكويت، وكان أشهر هؤلاء تريام عمران وشقيقه.

ولكن الذي أسعدني في الشارقة هو وجود زراعة هناك، وهم يزرعون بعض الخضروات لتكفيهم ذل انتظار ما تأتي به السيارات من خارج الحدود، وهذه السيارات قد تأتي أحياناً ولكنها غالباً لا تأتي.

ولقد عشت في الشارقة ثلاثة أيام ونزلت في قصر كان يطل على البحر، ونمت في الحجرة ذاتها، التي نام فيها جلالة الملك حسين. ودخلت القاعدة البريطانية التي كانت مصدر الرزق لأغلب السكان، ثم قررت بعدها ألا أتقدم خطوة أخرى على ساحل عمان، وأن أكتفي بهذا القدر، وأن أعود أدراجي.. وكفى الله المؤمنين شر التجوال! وتعجبت وقتئذ كيف تدهورت الأحوال في هذه الإمارات إلى هذا الحد الرهيب؟! وكيف تحول أشهر بحارة العرب، وأشهر صيادي اللؤلؤ إلى مجرد مخلوقات تعيش على ما يوجد به المستعمر من مساعدات؟! وخرجت بنتيجة غريبة، إنه الحظ السيئ والظروف التعيسة، وبعض المشايخ الذين عقدوا المعاهدات مع حكومة بريطانيا، ونصوا فيها على أنها سارية المفعول (حتى يشيب الغراب)! أما الحظ السيئ، فهو وقوع الإمارات في طريق الهند، وكانت بريطانيا الإمبراطورية مستعدة للتفريط في كل شيء إلا طريق الهند.

أما الظروف التعيسة، فهي خلو البلاد من أي مصدر للرزق. فلم يكن النفط قد تفجر من الأرض بعد، والزراعة نادرة كأنها مشائل للتجارب، أكثر

منها مزارع للاستغلال، وأكثر السكان رحلوا إلى السعودية، وإلى الكويت، وإلى قطر، وبعضهم ذهب بعيداً إلى عمان وإلى الهند.

وأما بعض المشايخ، فقد كانوا مجرد موظفين في معسكرات الانجليز، وكانت مهمتهم تنحصر في تأديب المخالفين والتفاهم مع السكان وإبلاغهم تعليمات الانجليز والفصل في المنازعات بين القبائل، وحضور قعدات الشاي والبخور في الليل، وتربية الصقور لزوم الفشخرة والقنص.

وبلغ تدهور الأحوال حداً جعل نشرة الأخبار في إذاعة المعسكر الإنجليزى يتصدرها خبر وصول سيارة الشحن رقم كذا من إمارة أبوظبي مثلاً إلى إمارة دبي، ويعلن المذيع في صوت وفور أن شاحنة وصلت بأمان الله وعليها شحنتها كاملة! ذلك لأن الطرق لم تكن طرقاً بالمعنى المعروف، ولكنها كانت مدقات في رمال الصحراء. وإذا نجت السيارة من الرمال خطفها قطاع الطرق، فإن نجت من قطاع الطرق فلن تنج من قطاع الذئاب الجائعة أو السيول المدمرة. ولذلك فوصول الشاحنة يعتبر خبراً يستحق أن يتصدر نشرة الأخبار. ولم تكن هذه إذاعات بالمعنى المعروف الآن، ولكن كانت توجد في كل معسكر انجليزى محطة إذاعة خاصة به، وكان يذيع نشرات الأخبار باللغة الانجليزية وموسيقى راقصة وبعض الأوامر والتعليمات، ثم كان يخصص ساعة واحدة كل مساء لإذاعة برنامج باللغة العربية لسكان الإمارة.

أين ذلك كله مما يحدث الآن هناك؟ وفي دولة الإمارات الآن ست محطات إذاعة كل منها قادرة على تغطية المنطقة العربية كلها، وست محطات تليفزيون ملونة، وثلاث محطات للأقمار الصناعية. لدرجة أن إمارة رأس الخيمة تستطيع الاتصال مباشرة هاتفياً بأى ركن على سطح الأرض، مع أن عدد أجهزة الهاتف فيها لا يزيد على ألف جهاز، كما أن عدد سكانها لا يزيدون على خمسة عشر ألف نسمة، وكان في استطاعتهم أن يتنادوا عبر النوافاذ! ولكن سبحان مغير الأحوال، من الضنك الشديد إلى الإسراف الشديد، ومن الفرجة على خيال الظل مرة كل عيد إلى مشاهدة المباريات الهامة

والاستعراضات العالمية حية وعلى الهواء .

ولكن أغرب شيء وأخطر شيء هو وجود خلية من الشباب اجتمعت بهم فى الشارقة ذات مساء، شباب فى عمر الورد يعملون فى السر وفى صمت، ويؤمنون بالقومية وبعدد الناصر وبالوحدة من الخليج إلى المحيط. ولست أذكر الأسماء الآن، فقد أصبح بعضهم وزراء ومسؤولين فى الدولة الجديدة، وقد غير بعضهم مواقعهم وتلاءم مع الوضع الجديد.. أو تلاءم عليه، وبعضهم صار مليونيراً يربح عشرات الألوف من مكالمات تليفونية، وينفق عشرات الألوف فى سهرة واحدة.. حمراء أم زرقاء ! .

ولقد كانت الوحدة بين الإمارات حلماً فصارت حقيقة، وإن كانت حقيقة مشوهة، إلا أنها حقيقة واقعة على كل حال. واستطاعت رغم كل شيء أن تقدم بعض الإنجازات. فلم تعد الإذاعة تذيع نبأ وصول الشاحنة رقم كذا، لأن طابور الشاحنات لا ينقطع ليل نهار على الطرق الحديثة التى تربط الإمارات. وأزيز الطائرات لا ينقطع لحظة فى جو الإمارات، وصوت الإذاعات لا يتوقف، وصور التليفزيونات لا تختفى.

لقد هبت الحياة فجأة واقفة على قدم وساق فى ساحل عمان الميت، وبدأت الوحدة زحفها، ولن يستطيع أحد وقفها، لأنه لم يخلق بعد هذا الذى يستطيع أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء.

وقبل أن أغادر الإمارات، صرخت من أعماقى: «يا كاشف الغمة.. ساعد أصحاب الهممة..!». .

## فجأة الذى.. فجأة !

وإذا كنت قد اكتشفت جديدا فى ساحل عمان .. فقد فشلت فى اكتشاف أى شيء جديد أو قديم فى قطر . كانت قطر هى آخر قرية كبيرة. وبدلاً من المعسكر كانت هناك شركة النفط . ثم عشرات من التجار الأقوياء . وإن كان أغلبهم من أصول غير عربية .

وإذا كان أهل الإمارات يمتازون بالدماثة والسماحة والدهاء الشديد ، فالقطرى جاف الطبع وحاد المزاج . وهو فخور بتاريخه القديم بمناسبة ومن غير مناسبة . كان القطرى يفخر بأنه من نسل قطرى بن الفجاءة . وتسأل عن أمجاد القطرى . ويكون الجواب أنه من قطر . وأنه كان فى رحلة إلى بلاد اليمن . ثم جاء فجأة إلى قطر ، فسمى فجاءة ! .

والمثقف القطرى يفخر أيضاً بأن حركة القرامطة ظهرت بوادرها الأولى فى قطر . وإن كان هناك قول آخر للتاريخ بأن الحركة ظهرت فى البحرين ، إلا



أن القطرى المثقف يسوق لك ألف دليل على أنها هبت من قطر ، وأن ابن قرمط كان قطريا يحمل الجنسية القطرية . وربما استبدت الحماسة بالمثقف القطرى ، فأكد لك أنه كان يعمل فى شركة النفط فى قطر .

وقد شهدت قطر فى الخمسينيات والستينيات دعوات تنادى بعدم تدريس تاريخ مصر والعراق وسوريا وغيرها لطلبة قطر ، والاكتفاء بتدريس تاريخ قطر . وعدم تدريس جغرافية الوطن العربى ، والاكتفاء بتدريس جغرافية الخليج . ولكن حظ قطر الحسن أنها نجحت فى التغلب على هذه الدعوات . وربما يمكن القول الآن - وفى منتهى الأمانة - بأن نظام التعليم فى قطر يعتبر من أرقى نظم التعليم فى الوطن العربى . وكان ذلك بفضل وزير التعليم السابق ، وأيضا بفضل عربى من مصر اسمه ( كمال ناجى ) .

وسيبقى لقطر فضل على منطقة الخليج - بعد الكويت بالطبع - أنها كانت كعبة كل المهاجرين من إمارات ساحل عمان ، ففيها شركة للنفط ، وفيها حركة تجارية نشيطة . وأسباب العيش متوافرة إلى حد كبير . كما أنها كانت مقصدا لطلاب العلم . فأحمد خليفة السويدي مثلا ، أقام وتعلم وعمل فى قطر فترة طويلة من الزمان ، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه فى أبوظبى . وعلى الشرفا أيضا ، وعشرات من المسؤولين فى دولة الإمارات . حدثنى رئيس تحرير مجلة أسبوعية فى أبوظبى ، أنه عاش فترة من صباه وشبابه فى قطر ، وأنه كان يعمل ( بوى ) فى شركة النفط . و ( بوى ) تعنى فراش بالعربى الفصحى . وقال لى مدير بنك فى دولة الإمارات : إنه عندما اشتد الجذب والجفاف فى ساحل عمان ، هاجرت الأسرة فى زورق شراعى من الخليج إلى قطر . ولكن الرياح كانت عاصفة ، والبحر كان أكثر هياجا . فانقلب الزورق وأشرفت العائلة على الهلاك . ولكنهم تمكنوا من النجاة بمعجزة بعدما فقدوا واحدة من بنات الأسرة . وفى النهاية استطاعوا الوصول إلى قطر حيث عمل رب الأسرة فى البنك ، وعمل أبناؤه فى مهن شتى . واستطاعوا مواصلة الحياة حتى عادوا مرة أخرى إلى الإمارات . ولكن الحال كانت قد تغيرت والدنيا كانت قد تبدلت ( رفع

سماعة التليفون خلال الحديث ليبلغ عميلا له فى لندن بموافقته على صفقة بعشرين مليون درهم ) .

وفى خلال زيارتى الأولى لقطر ، اجتمعت مع الأمير السابق لمدة نصف ساعة ، لم تتبادل فيها كلمة واحدة . ولكنى تناولت خلالها الشاي مرتين والقهوة مرة واحدة ، وشميت البخور فى نهاية ( الحديث ) . كان منطويا على نفسه ، ومرتابا فى كل الناس ، وكان يقضى فى قطر شهرين طوال العام ، وفى القنص شهرين ، وفى الاستجمام من عناء القنص شهرين ، وباقى شهور السنة يقضيها فى قصره على شاطئ الخليج فى دبی ..

وقد حضرت مباراة كرة قدم حدد موعدها فى الرابعة بعد الظهر . ولكنها لم تبدأ إلا فى السادسة ، بسبب عدم وصول الأمير الذى أقيمت المباراة تحت رعايته . وعندما وصل الأمير وعزفت الموسيقى السلام الأميرى ، لم أتمالك نفسى من الضحك ! فقد كان الأمير طفلا فى الخامسة من عمره . وقف يصفق ويصرخ أثناء عزف النشيد . وبالطبع دارت المباراة فى الظلام ، وانتهت بانتصار فريق قطر . مع أنه كان يلعب فى قطر مع بطل أندية إفريقيا . ولكن فى ذلك الزمان ، لم يكن أحد يستطيع أن يلعب فى قطر ويفوز . ولو كان الفريق الزائر مكونا من أحد عشر ( ببليه ) . وعندما عاتبت الحكم الذى أدار المباراة لسوء تحكيمه ولجهله بقواعد اللعبة ، رمقنى بنظرة ذات مغزى ، وقال لى فى حكمة غريبة : « لسنا هنا فى كأس العالم . المهم أن تنتهى المباراة فى سلام ، وأن نجلب السعادة إلى قلوب الحاضرين » .

ولكن موقفا عظيما يذكر لقطر ، وهو ندرة العنصر الأجنبى على أراضيها ، ووفرة العنصر العربى . وهى ليست مسألة عشوائية ، ولكنها جاءت نتيجة تخطيط سليم ، وربما نظرة قومية من أعلى . وبالرغم من أنها لاتزيد فى المساحة والسكان عن بنها فى مصر ، أو حمص فى الشام ، أو الحلة فى العراق ، إلا أنك ستجد فيها محطة إذاعة ولا محطة ( صوت أمريكا )

وتليفزيون ملون . ومدينة رياضية . وحفنة صحف ومجلات . ومصنعا للحديد والصلب .

...

سألت جاري في الطائرة - وهو انجليزى من لندن - عن المسافة بين قطر والبحرين . فأجابنى بأن المسافة بينهما هى نصف قرن بالتمام والكمال ! والذى قاله الرجل الانجليزى الخبير هو الواقع . ففى البحرين حضارة وتاريخ ومجتمع ، وفيها حكومة قوية عفية كحكومة قطر . ولكن فيها أيضا حركة ثورية ، أحيانا فوق الأرض ، ودائما تحت الأرض . وصوت الناس له زئير فى البحرين . أحيانا يشتد كزئير أسد جائع فى غابات كانتجا ، وأحيانا يلين كزئير أسد أفلام مترو . ولكنك ستستمع الى الزئير فى كل مرة تطأ فيها قدماك أرض البحرين . وناس البحرين أذكاء ، وهم أشطر تجار الوطن العربى ، وأعلم أهل الخليج . ومنهم الفنانون والممثلون والراقصات .

وأشهر مطرب فى الخليج بحربنى اسمه محمد زويد . استمعت إليه فى جلسة خاصة ، وأشفقت عليه . فقد كان يغنى بقطرات الدم المتبقية فى عروقه ، وبخفقات قلبه الذى أصابه الوهن بفعل السنين الطويلة . فقد كان الرجل يزحف نحو الثمانين ، وقد شرب ليلتها حتى ثمل ، وجلس على الأرض وراح يدندن على العود ، ويحاول أن يستخرج صوتا من داخل تلافيف تجاويف صدره ، يهتز وهو يغنى كعصفور أصابه البلل ، ويرتعش كقطعة تلد فى زمهرير الشتاء . ولكن صوت محمد زويد ، بالرغم من كل شيء كان قويا ودافئا وصادقا . وقد سرحت مع صوته إلى سحيق الماضى ، وطويت القرون القهقرى إلى صدر الإسلام . إلى شعاب مكة وجنات المدينة ، وإلى معبد وابن سريج . وكان محمد زويد يغنى الكلمات نفسها التى غناها كل منهما فى أرض الحجاز ، كلمات الشاعر الشقى عمر بن أبى ربيعة ، والألحان ، لعلها هى نفسها ، والجو هو نفسه .

وما الفرق بين العوالى فى البحرين والحفائر فى مكة ؟ وما الفرق بين المنامة فى البحرين ومرج ابن سعد فى المدينة ؟ وما الفرق بين معبد والزويد ؟ ثم ما الفرق بين جمهور المستمعين فى المدينة زمان وبيننا نحن الذين اجتمعنا تلك الليلة نستمتع إلى محمد زويد فى البحرين ؟ لعل الفرق الوحيد هنا ، أننا كنا ليلتها مجموعة عرب نحمل أكثر من جنسية . ( أبو فيصل ) من الكويت ، و ( الدرويش ) من قطر ، و ( فخرو ) من البحرين ، وآخر لا أعرف اسمه من اليمن ، وأنا من مصر . وكنا مهزومين . فقد كانت حرب الأيام الستة تلملم أذيالها . وكان بعضنا يحاول أن ينسى . وبعضنا يحاول أن يشمت . ولكن الهزيمة كانت تطحننا جميعا ، والعار يرفرف على رؤوسنا كلنا ، والخزى هو طابع الجميع .

ما أبعد الفارق بيننا وبين سميرة زمان .. فى الزمان ، وفى واقع الحال . كانوا - عكسنا - يحتفلون بالنصر ، وكانت جيوشهم تزرع أعلامها فى أرض الروم والفرس ، وكانت لهم دولة واحدة وجواز سفر واحد ، وكان موتاهم شهداء ، وأحيائهم سادة . وكانت لياليهم ليالى الملاح والأفراح ، بينما ليالينا هى الهستيريا والعصبية والارتداد إلى داخل النفس ولعق الجراح . تبدلت الأمور والأحوال ياولده ، وتقطعت الأوصال والصلات . لم يبق فينا من السلف الصالح إلا كلمات ابن أبى ربيعة . وهى ظاهرة صحية على أية حال ، ثم هى ظاهرة فريدة ليس لها مثيل فى أى مكان . فليس هناك شعب يغنى أغنية عمرها ألف وأربعمائة عام إلا شعب العرب . حضارة متصلة تضرب جذورها فى بطن التاريخ الى غور بعيد ، كشجرة الجميز الطيبة التى تضرب جذورها فى الأرض إلى عمق عميق . وأأسفاه ! الجذور طيبة ، والأفرع سامقة ، ولكن الأوراق ذابلة ، والثمار بعضها فاسد ، وبعضها أصابه العطب والعطن .

ولكن ها هى البحرين ، على أى حال ، تحاول أن تصل الحاضر بالماضى . وهى بالفعل تعيش فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل ! وهما نحن ومعنا سيدات والمينى جيب فوق الركبة ، وأحيانا فوق الرقبة . والإختلاط مباح .

والمرأة لها فى البحرين وجود ، والناس بالانجليزية ترطن وبالفرنسية تتلاعب ، والتجار شطار ، ولكن بشرف .

وإن كنت محظوظا لأنى التقيت بالصدى صالح شهاب فى البحرين .  
وصالح هو وكيل وزارة الإعلام فى الكويت ، ولكنه فى البحرين أشهر من سبع كوبرى قصر النيل فى القاهرة . ولو يشرح صالح نفسه فى البحرين لصار نائبا عن عموم الأمة . والسبب أنه درس أيام الشباب فى البحرين . ولذلك فهو معروف على مستوى الحكومة ، وعلى مستوى السوق ، وعلى مستوى المتسولين الذين يحيطون بالمساجد .

ومن خلال أبو فيصل ، دخلت البحرين المخملية ، ورأيت البحرين المرتاحة ، وعشت مع البحرين الممتلئة الثرية . ولكن بحرين النوادى والثورة والطلبة ، أنا رأيته بنفسى ، ودخلتها بمعرفتى . وقد بهرنى مارأيت وهزنى ماشاهدت . شباب كالورد يحلم ببحرين عربية ، وبيبحرين قوية ، وبيبحرين مركز إشعاع ، تؤثر فى شبه الجزيرة ولا تتأثر ، وتصوغ مستقبل المنطقة وتلعب فيها دور الضمير والفؤاد .

والحق أقول إن الفرصة كانت مواتية والظروف كانت مناسبة . والبحرين الصغيرة كانت تموج بالأفكار والآراء ، وتضطرب بالحياة والأحياء ، وكان فيها أكثر من رأى ، وأكثر من صوت ، بينما كل شيء حولها كان مجرد صحراء تمتد عشرات الألوف من الأميال كعملاق فارقت الروح . وفى المواجهة تقف إيران تتربص وتتلمظ .

البحرين الصغيرة كانت واحة شبه الجزيرة ، و ( باريس صحراء العرب ) ، ومرفأ بحر الظلمات الذى ليس له شواطئ .

• • •

ولكن البحرين التى عرفتها لم تستمر ، حاصرتها مشاكل المنطقة وتغلبت

عليها فى النهاية وفرضت عليها قوانينها ! ومأساة البحرين تحتاج إلى شاعر عظيم كالمتنبى يخلدها على طول الزمان ، وتحتاج إلى أكثر من مطرب يشدو بها فى السهرات ، ويسرح بها فى الأسواق . وقد يسأل سائل : وماهى مأساة البحرين ؟ وهل حدث لها مكروه لا قدر الله ؟ والجواب كما سبق وأن قلت : إن البحرين كانت واحة شبه الجزيرة ، وكانت حديقة الخليج ، وكانت بمثابة الرئة التى تتنفس منها صحراء العرب المحرقة . وكان عشمنا فى الله كبيرا ، أن تتسع دائرة الضوء التى تشع من البحرين لتشمل الخليج كله . ولكن الذى حدث كان عكس ماتوقعناه ، وأصبح النظام فى البحرين جزءا من النظام فى الخليج ، وإن كانت لا تزال تتميز بأن العنصر الأجنبى فيها نادر للغاية ، وبأن الأمن فيها أحكم من الأمن عند جيرانها ، كما أن الجسر الذى ربطها بالسعودية جعلها فى مأمن إلى الأبد من أطماع الجالس على عرش فارس ، سواء كان يدعى الشاه أو يتلقب بالإمام . ومع ذلك أرجو أن تعود البحرين إلى سالف عهدها القديم ، حيث كانت ممرا ومقرا للأفكار الحرة وللفن العظيم .

وإذا كان الحديث عن البحرين ، فلا بد أن نذكر بالخير حاكم البحرين .  
أطيب الحكام العرب الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم ، وإن كان أفقرهم . ولكن ماأشد غناه فى السماحة والल्प وحرارة الاستقبال . ولا بد أن نذكر أيضا كوكبة الشباب المثقف الذى يشترك فى توجيه دفة السفينة التى تقف الآن فى مواجهة أطماع إيران ، وترفع راية العروبة فى وجه التحديات والمؤامرات .

وهتفت وأنا أغادر البحرين فى آخر زيارة لها : « يارب ، احفظ بإرادتك القاهرة أرض البحرين الطاهرة » .

والرجل فى السودان اسمه (زول) والمرأة اسمها (حبوبة)، وكل شىء فى السودان فسيح وعريض وممتد: الأرض الزراعية بلا حدود، والغابات تسد عين الشمس، والأنهار تجرى بإذن ربى، وبينها قنوات وروافد، والخير على قفا من يشيل، والسعى على المهمل، والرزق مضمون عند السماء الصافية، والدنيا حظوظ.. ومزاجات!.

هكذا كانت الأحوال عندما هبطت السودان أول مرة. وشعرت منذ أول لحظة أنى رأيت هذا المكان من قبل. ولقد حدث لى فى السودان حادث لم يحدث لى مثله من قبل، ولم يحدث لى بعد ذلك قط. جلست على رصيف فى أم درمان مع مجموعة من الأصدقاء، كان بينهم سبت دودو حارس مرمى السودان الشهير وأعظم حراس المرمى فى إفريقيا يوماً ما، و(سبت دودو) معناها بالعربى أسد يوم السبت. وقد امتدت السهرة بنا وطالت، وكنا قد أكلنا فولاً وبصلًا وكسرة وشرموت. وفجأة استأذنت، وبعد أن صافحت الجميع، انصرفت مسرعاً لا ألقى على شىء. ولم يسألنى أحد منهم إلى أين أنت ذاهب؟ فقد كان من المفروض أن أسهر معهم إلى أى وقت، فإذا رغبت فى العودة إلى (الجراند أوتيل)، ذهبت فى سيارة أحدهم. المهم أننى استأذنت فجأة، وانصرفت على عجل، ووقفت على بعد عشرة أمتار منهم بجوار ما تصورت أنه محطة أتوبيس. لماذا؟ لأننى ألغيت تماماً مسألة وجودى بالسودان، وتصورت نفسى على رصيف فى حى عابدين! وما دامت الساعة قد أصبحت الثانية صباحاً، فلا بد من عودتى إلى الجيزة قبل أن تتوقف وسائل المواصلات. ولكنى عدت إلى رشدى بعد دقائق، واكتشفت أننى على بعد آلاف الكيلو مترات من القاهرة، وأن الرصيف الذى كنت أجلس عليه منذ خمس دقائق، هو فى أم درمان وليس فى عابدين! وعندما عدت أدراجى إلى شلة الأصدقاء السودانيين انفجروا ضاحكين، فقد اكتشفوا ما حدث للعبد لله من تداخل فى الزمان والمكان.

إلى هذا الحد أنسى نفسى فى السودان؟! نعم. وأنا مثلاً وقفت عند المجرن،

## آل سوري إلهائي!

ومن البحرين عبرت أنا الخليج، وعبرت السعودية، وعبرت البحر الأحمر، وحطت الرحال فى السودان. وإذا كان شعب البحرين يسيل رقة، فالرقة نفسها هى شعب السودان. فأنت فى الخرطوم مثلاً تستطيع أن تنام مفتوح الأبواب، ولن يجرؤ أحد أن يمس طعامك أو متاعك:

والحزب الشيوعى السودانى مثلاً يصرخ بالحناجر طوال النهار ضد حزب الأمة، وحزب الأمة يشهر الخناجر طوال النهار ضد الحزب الشيوعى، والحزب الوطنى يستنكر أعمال الطرفين. ولكن الجميع سيجتمعون فى الليل حول مائدة العشاء، وسيشربون جميعاً من نهر الويسكى الذى يجرى تحت الأقدام. ولما أبدت إعجابى بهذه الظاهرة، همس أحدهم فى أذنى.. هذه هى الطريقة السودانية. فالخصام لا يتحول فى السودان إلى كراهية، والخلاف لا يتحول إلى حقد، والنقاش لا يتحول إلى شجار، والشجار لا يتحول إلى معركة، والكل أصدقاء وأحبة.

حيث يلتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض ليخرج من عناقهما الخالد نهر النيل العظيم، يتدفق مخصوفاً معشوشباً نحو الشمال. أنا وقفت هناك ذات أصيل، وإذا بى أشم رائحة الأرض فى المنوفية. عند الشجرة، أنا تصورت نفسى عند القناطر الخيرية! أنا فى قرية الكدرو تصورت نفسى فى قرية بهناى فى المنوفية، أو فى قرية العزيزية بالجيزة، أو فى ميت يعيش فى الدقهلية! الجو هو نفسه، والطين نفسه والرائحة نفسها. وكل شىء هناك له مثل هنا، حتى الشجر والحجر والبنى آدمين!.

يا ميت حلاوة على السودانى الأصل، إذا سكر فهو الشراب ذاته، وإذا ضحك فهو الفرحه نفسها، وإذا بادلك الصفاء والود، فلا صفاء ولا ود بعد ذلك. ولكن احذر السودانى إذا غضب، وهو لا يغضب إلا للشديد القوى. وكما أن فى كل جماعة الطيب والخبيث، والصالح والطالح، إلا أننى عندما أصادف سودانياً خبيثاً، أبدو كمن صعقه تيار، وكأنه من المفروض ألا يوجد سودانى خبيث، وكأنه من البديهي أن كل أبناء السودان من الصحابة، ومن أولياء الله الصالحين!.

وربما لهذا السبب، وأيضاً لأن كل السودانين طيبون، فأنا اتصورهم جميعاً لهم نفس الملامح، فالطبيب الصالح يشبه على شمو، يشبه الدكتور عقيل، يشبه فاروق أبو عيسى، يشبه الدكتور عبد الحميد عبد الرحمن، يشبه الدكتور محبوب، يشبه خالد عباس، يشبه الدكتور عبد الحميد صالح.. فكلهم رجل واحد، ولأنه سودانى إذن فهو طيب، وهو إنسان بالرغم من اختلاف المذاهب والمناهج والطريق.

ولكن للحقيقة عرفت سودانياً اسمه (أبوآدم)، وهو مثقف من إياهم. ويوماً كان من أهل اليسار عندما كانت أعلام اليسار مرفوعة وأمواجه عالية، ولكنه خلع جلده فجأة، وانضم إلى يسار آخر، وإن كان يسلك عكس اليسار القديم. ولم تكن حركة الانتقال نتيجة دراسة ومقارنة واقتناع، ولكن لأن اليسار الجديد الذى انضم إليه كانت فلوله كثيرة وشيكانته حاضرة. ولا أستطيع أن أقول بأن

(أبو آدم) هذا هو أخبث سودانى، ولكنى أستطيع القول بأنه أخبث بنى آدم. وأغرب شىء أنه عض اليد التى امتدت له خلال محنته فى الجيزة، وتنكر للناس الطيبين الذين احتضنوه أيام تشرده.

وعندما أبديت للصديق على شمو دهشتى من وجود سودانى من هذا النوع، أجبنى الصديق على شمو مبتسماً: هكذا السودانى، إما نموذج من السماء، وإما نموذج من الحضيض. ولأن الذين فى الحضيض قلة، لذلك ستجدهم فى حضيض الحضيض. ولأن الحياء هو ميزة السودانى، فإذا زال الحياء عن السودانى فقل عنه ما تريد.

وأنا لا أسوق مثال (أبوآدم) هذا لمجرد التفكه، ولكن لأن (أبوآدم) بتاع الجيزة سيجرنا إلى شىء أخطر، إلى (أبوآدم) آخر كان يحكم السودان منذ وقت قريب. وفى عهد (أبوآدم) النميرى، تحول السودان إلى ساحة معارك، وتحولت الخصومة السياسية إلى حروب قبلية، وأصبحت كل أيام السودان من أيام داحس والغبراء. والسبب أن (أبوآدم) النميرى استطاع أن يغير من طبيعة السودان. ف لأول مرة فى السودان يتعلق المخالفون فى الرأى على المشانق، وتجرى كل عدة أسابيع مذبة فى الشارع، ويطلق النار على المعارضين دون محاكمة. إنها أشياء جديدة على السودان، وهى من أفضال (أبو آدم) النميرى، الذى تختلف طبيعته كثيراً عن طبيعة شعبه، والذى جاءت به الأقدار التعيسة على رأس السودان، وعلى يديه تحول البلد الآمن المطمئن إلى عش زنابير، وبفضله تحول النيل الأبيض إلى النيل الأسود، وتحول النيل الأزرق إلى أزرق نيلة.

• • •

ومن كان يتصور أن الشعب السودانى سينتفض مرة كل عدة أشهر، وأحياناً كل عدة سنوات ليقدم الشهداء تلو الشهداء، ولكى يزيع عن صدره كابوس الظلم والظلام. لعلنى أستطيع أن أزعم بأننى كنت أتصور ما حدث لمعرفتى

بشعب السودان. والذي يريد أن يعرف شعب السودان على حقيقته، عليه أن يدرس على الطبيعة نيل السودان الأبيض ونيله الأزرق. فكلتا النهرين ينحدران من الجنوب إلى الشمال، ويلتقيان عند أم درمان، ليتعانقا معاً، وليكملا المشوار في نيل واحد لا هو أزرق ولا هو أبيض، ولكنه نيل فقط.. والسلام.

ولكن ما أبعد الفارق بين النيلين! النيل الأبيض طيب هادئ فسيح ما بين الشاطئين ضحل المجرى، وحيواناته ضخمة مثله، طيبة مثله: أفراس بحر، فيلة، وقطعان هائلة من الغزلان والزرافات تشرب على الشاطئين. ويخيل لمن يقف على شاطئ النيل الأبيض أنه نيل ميت، والسبب أن سطحه هادئ وخامد، فلا موجة ولا دوامة ولا حتى سمكة تتلعبط، لأن السمك الذى تحت الماء سمك أهبل وطيب وعبيط وضخم الجثة. والسمكة الرشيق فى النيل الأبيض تزن مائة كيلو، وبعضها يصل وزنه إلى ثلاثة أطنان، واسمها (العجلة)، وهى أحياناً ضعف حجم البقرة، ويبيعونها بالكيلو على شاطئ النيل!.

وبالعكس تماماً تستطيع أن تصف النيل الأزرق. فهو نيل هادر ثائر عميق الغور، ضيق المجرى، متوحش وعنيف، تستطيع أن تسمع صوته من مسافة بعيدة، وهو ينحدر بعنف من فوق جبال الحبشة، دافعاً أمامه أطناناً هائلة من الحجارة والصخور والطمى، وفى أعماقه تتصارع وحوش بحرية هائلة، وتماسيح عملاقة تخطف حتى الفيلة التى تدنو من الشاطئ، وأسماك متوحشة لها حراب ولا حراب مقاتل زنجرى من مدينة واو. وفى النهر دوامات تبتلع من يقترب منها، وأمواج تلطم الشاطئ بشدة، وتيارات تسحب من يقف فى وجهها، وأعشاب سامة ينشق عنها قاع النهر تقتل من يأكلها أو يلمسها.

ومن صفات النيل الأزرق وصفات النيل الأبيض، استمد السوداني صفاته، فهو طيب هادئ كالنيل الأبيض، وهو أيضاً هادر ثائر متوحش كما النيل الأزرق، وهو لا ينام عن ثأره، ولو نامت كل الأحياء، وهو لا ينسى الإساءة، وإن كان يبدو للسذج أنه حلیم إلى ما لا نهاية. ولا أحد يستطيع أن يحكم السودانى بالقوة أو يفرض عليه نظاماً بقوة السلاح.

ولقد أخطأ النميرى حين تصور أنه قادر على أن يحكم شعباً رغم أنفه، وهو من أجل أن يبقى فى السلطة، جعل فى كل بيت قتيل، وجعل بينه وبين كل سودانى ثأراً. ولأن الخطأ كان فادحاً، فالثمن كان أفدح. وعندما سقط النميرى من فوق عرشه الذى أقامه على تل من جماجم الشهداء، كان السودان نفسه قد تغير. لم يعد السودان بعد النميرى هو نفسه السودان قبل النميرى، والفرق بينهما هو ذات الفرق بين هيروشيما قبل القنبلة الذرية وهيروشيما بعدها.

وإذا كان هذا هو السودان السياسة، فالسودان الناس ما أحلاه. والسودانى كالمصرى سيصبح صديقك بعد أول كأس، وسيصبح أصدق الأصدقاء بعد الكأس الثالثة، وقد يموت من أجلك بعد أن تفرغ الزجاجاة. وإذا أحبك السودانى فكل شئ فىك جميل، حتى النهار الذى وصلت فيه هو أجمل الأيام، والمناسبة التى جئت من أجلها هى أحلى مناسبة.

والمرأة السودانية إذا أحبتك ستمنحك كل شئ، وهى رقيقة وعذبة وحبابة ومغرفة فى الرومانسية، ومتأثرة بعض الشئ بروايات الحب فى السينما، وبعضهن يمثل فى الحياة أدواراً سبق لهن مشاهدتها على الشاشة. حتى المرأة السودانية المبدولة للراغبين فى حى الامتداد تختلف عن أى امرأة مثلاً على ظهر الأرض، فالونسة هى الشئ الأهم، والمناقشة تأتى فى المرتبة الأولى، وقبل كل شئ. وقد يزدرد الزبون عشر زجاجات بيرة قبل اللقاء والعناق، فلا شئ يدعو إلى العجلة.

والبنات السودانية العادية تقطر خفراً وحياء، وهى تتعثر حين تمشى، وتتكسر حين تميل، وتصاب برصاصة إذا صوبت نظرتها إليك، وليس أجمل من هذا العصير العربى الإفريقى، ولا أمتع من هذا المزيج السامى الزنجرى الذى أنتجه عرب قحطان وزنوج الدنكا، وكانت نتيجته هذا الجمال (العريقى)، أو هذا الجمال (الزنجرى) إذا صح التعبير!.

ولعل هذا يفسر لماذا تزوج كل أفراد الجيش المصرى الذين خدموا فى السودان أو بعضهم من بنات الجنوب، وبعضهم أقام هناك فلم يبرح مكانه، ولم

يعد إلى شمال الوادى. تعرفت هناك على مصرى عجوز يفتح دكان بقالة فى الخرطوم. كان قد ذهب جندياً فى جيش مصر وتزوج هناك وأنجب أولاداً، وعاش فى التبات والنبات، فلما انتهت خدمته أثر البقاء فى الخرطوم، واشتغل بالتجارة، وازدهرت أعماله، ولكنه فى الخامسة والخمسين أصبح وحيداً، فقد ماتت زوجته، وتفرق عنه أولاده، وعندئذ قرر العودة إلى مسقط الرأس. وعندما التقيت به فى الخرطوم، كان قد تجاوز السبعين ولكنه لم ينفذ حلم العودة قط، بالرغم من أنه كان يذهب كل عام إلى محطة السكة الحديد ويقطع تذكرة العودة، ويذهب إلى السوق فيشتري كل ما يحتاجه من أغراض، ويعد الحقائب ويجلس فى انتظار يوم السفر، إلا أن يوم السفر هذا لم يأت قط، كأنما فى الأرض خيوطاً تجذب الرجل فلا يستطيع فككا، أو كأن قدميه انغرسا فى طين السودان فلا يستطيع الحركة. لقد كان قدره أن يبقى هناك حتى آخر أيام العمر. ولم تكن هذه قصة (عم سليمان) وحده، ولكنها قصة ألف سليمان على الأقل، كلهم تمنوا العودة وكلهم هموا بها، ولكنها لم تتحقق لأحد منهم قط.

وإذا كان هذا هو السودان العربى الشمالى، سماحة من غير تفريط، ومحبة بكرامة، وصبر ولكن بدون يأس، فإن السودان الإفريقى الجنوبى شيء آخر. وإذا تصورت جنة الله فهى ستكون حتماً على غرار واو أو جوبا، حيث الغابات الفسيحة تجرى من تحتها الأنهار، وحيث فاكهة الجريب فروت تداس بالأقدام، وحيث كل شيء، وأى شيء بازغ وآفل، وأى شيء أكل ومأكول.

## والدراخل مقفول!

وكل بلاد العرب كوم وجنوب السودان كوم آخر. إنه غابة العرب الوحيدة (معذرة لأنى لم أزر الصومال) وهو جنة الله فى الأرض. وشعب الجنوب طيب وغلبان وعلى الفطرة، وهو لم يزل على حاله كما خلقه الله، ولولا مؤامرات الاستعمار على جنوب السودان، لكان لدينا الآن غابة بتكلم عربى، مع الاعتذار للفقان الأرزقى سيد مكاوى.

ولكن الخواجة الذى كان يحكم ويتكلم، وضع ستاراً حديدياً حول الجنوب، فلا أحد يدخل إلا بإذنه، ولا أحد يخرج إلا بإرادته. الأبواب مفتوحة للمبشرين ومغلقة فى وجه الوعاظ، الكنائس مباحة والمساجد ممنوعة، اللغة الانجليزية متداولة واللغة العربية مطاردة، كأنها بعض لغات الشيطان. ولو كان الخواجة أصلح فى الجنوب، لو أنه نشر التعليم، لو أنه أقام نظاماً للحماية الصحية، إذن لغفرنا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولكن كل شيء باق على حاله: المرض يفتك بالسكان، والجوع يفرى البطون، والجهل يعمى البصيرة والإبصار.

أرادوا الجنوب غابة للصيد ومضطجعا للراحة والاستجمام!.

أغرب شيء رأيته في الجنوب تمثال للسيدة العذراء والسيد المسيح، الملامح زنجية واللون أسود، يريدون إيهام أبناء إفريقيا أن المسيح كان من أبناء القارة السوداء. ولقد وقفت أمام التمثال أتأمل وأتذكر قول شاعر إفريقي من غانا: «عندما جاء المستعمرون كان معهم الإنجيل ومعنا الأرض، وبعد وقت قصير أخذوا منا الأرض وأعطونا الإنجيل»!.

رأيت في مدينة واو شاباً عارياً تماماً من الجنوب، ولكنه يرتدى قبعة فوق رأسه، ويدخن البايب، ويرطن بكلمات انجليزية، لعله لا يفهم معناها! رأيت آخر يستند إلى جذع شجرة ضخمة ويغنى أغنية أمريكية ذائعة الصيت (هابي بيرث داي)! وفي أحد شوارع جوبا استلفت نظري عدد من الشباب يرقص عارياً تماماً، وفي الطريق العام، وعلى أنغام موسيقى راقصة، تتبعث من جهاز راديو رقصة (الهاي لايف) وكانت هذه الرقصة هي الشيء الوحيد الذي تركه المستعمرون خلفهم في الجنوب. ولكن بالرغم من كل ما فعله الاستعمار في الجنوب، فقد اكتشفت تعاطفاً شديداً لدى الجنوبيين مع عرب الشمال.

وأبكاني ذات مغربية ولد جنوبى يغنى داخل الغابة في مدينة جوبا لحناً غاية في الأسى والشجن. كان الجو ساحراً والشمس انحدرت وراء الغابة، وفي السماء قطع سحب ضالة، ونسمة هواء منعشة، ورائحة فواكه طازجة تحلق في الجو. وكان الولد الزنجي يغنى بصوت أشبه بصوت عبد الحليم حافظ مخلوطاً بصوت مطرب الخليج محمد زويد معجوناً بصوت عمنا القديم الشيخ يوسف المنيلاوى، وكانت كلماته هي عصير مأساته.. خليط من العربية والانجليزية والرومانسية. (المذكور) هم أبناء الشمال، ولا أدري في أى لغة تكون. و (ماتوا) معروفة بالطبع. و (سمبله) أصلها انجليزي ومعناها ببساطة. و.. آك سورى إكوانى! (آك) ومعناها أخ، حرف نذب ولطم. وتستطيع أن تجد أصلها وفصلها في قاموس أختنا الخنساء التي قضت العمر كله تندب أباها صخراً. و (سورى) هي سورى بالانجليزية، بمعنى آسف. و (إكوانى) هي

إخوانى بالعربى. والولد الجنوبي يعلن أسفه وأساه على إخوانه (المذكور) من أبناء الشمال الذين ماتوا ببساطة، أو ماتوا أونطة، أو ماتوا بلا سبب. وهو بعض بنان الماضى، ويقضم أطافر الأمس، على هؤلاء الإخوة الذين ماتوا بلا ذنب، ودفعوا حياتهم بلا سبب.

وهذه الأغنية كانت منتشرة في الجنوب عقب الحرب الأهلية التي نشبت بين الشمال والجنوب في عهد الفريق عبود. ولقد أريقت دماء كثيرة في الغابة، وضاع المئات من زهرة شباب السودان من شماله وجنوبه، وانتهت الحرب بإطاحة نظام عبود. وبقي الشمال في حاله والجنوب على حاله، ولم تحل الحرب مشكلة واحدة من مشكلات السودان. آك سورى إكوانى.

ولو كانت لدى أبناء قحطان وعدنان خطة، لو كان لديهم برنامج، لو لدى الأثرياء منهم بعد نظر وعاطفة قومية حقيقية، فإن جنوب السودان يمكن أن يتحول إلى جنة العالم خلال عشر سنوات. إنه يمكن أن يصبح حديقة العرب جميعاً، وحقل العرب عموماً، وعماد مصانع العرب في كل مكان. وهنا أعظم أخشاب العالم، وألذ فواكه الأرض وأغنى مراعى الدنيا، وأعلى جلود عرفها البشر. وهنا الأناناس في حجم كرة القدم، ولكنه يترك على الأرض حتى يتحول إلى هباء. وهنا الصمغ يهمل حتى يجف على الشجر. وهنا مزرعة ثعالب الكرة الأرضية، ولكن جلودها تتعفن بعد الموت. وهنا حيوانات من كل صنف وعلى كل لون، عظامها تصلح أسلحة، وجلودها تصلح أحذية، ودهنها يصلح كترياق.

ولكن يبدو أن السادة العرب في واد آخر عن أراضيهم وعن خيرهم. ولماذا المشقة وكل شيء حاضر في مخازن (هارولدز)، وكل شيء موجود عند مخزن (لافايت)، وكل شيء معروض في شارع (أكسفورد). وأخشى أن نبكى على الجنوب يوماً لو ضاع من أيدينا، كما نبكى اليوم على الأندلس. فالجنوب ليس أقل أهمية من الأندلس، إن لم يكن أخطر، فهو بوابة إفريقيا، وحدوده مفتوحة على الحبشة وزائير وإفريقيا الوسطى، وهي مفتوحة لأن الغابة ليس لها بوابة،



فكل شيء سايح ومتجول وعابر سبيل. فهكذا طبيعة الغابة، لا شيء يحدّها ولا شيء يتحكم فيها. ولكن للغابة حديث آخر. نرجو الواحد الستار أن يبقينا وإياكم حتى نهتك لكم هذه الأسرار.

• • •

والغابة أحوال وأهوال ومصائب سودة، ورزايا ونوايب، والداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، أو هي هكذا على الأقل في نظر الذين لا يعرفون الغابة. ولكنها في نظر الآخرين الذين يعرفون الغابة شيء آخر، جزء من الحياة، يجرى فيها ما يجرى في شارع (الشانزليزيه) في باريس أو شارع (ريجنت) في لندن. صحيح أن كل شيء فيها آكل ومأكول، ولكن من قال إن هذه ليست صفة المدن الكبيرة؟ الأسد آكل الذئب، والذئب آكل الثعلب، والثعلب آكل القنفذ، والقنفذ آكل الثعبان، والثعبان آكل الطير، والطير آكل الجميع عندما يتحول الجميع إلى جثة مطروحة في العراء!.

والأسد هو ملك الغابة.. خرافة. صحيح هو ملك الغابة بمرسوم أصدره الإنسان، ولكن هذا المرسوم سيظل حبراً على ورق، لأن حيوانات الغابة لم تسمح به قط. وأعجب العجائب أن ملك الغابة هو الحيوان آكل الأعشاب: الفيل والجاموس ووحيد القرن. هؤلاء جبابرة الغابة، وهم أبطال الوزن الثقيل فيها، ولهم من الجميع المهابة والتقدير والاحترام. ووحيد القرن هو أقوى الجميع وأغباها، وهو مثل ليستون، مصرعه في غيبائه. وتأتى الجاموسة بعده في القوة والغباء. ويحتل الفيل في الغابة مكانة محمد على كلاى في الملاكمة، القوة والذكاء. ولذلك سيبقى متربعا على عرش الغابة وإلى آخر الزمان. والأسد المهاب أبو الزنبر إذا التقى بالفيل في الغابة، تنحى عن الطريق وضرب للفيل تعظيم سلام.

والأسد هو أكسل حيوان في الغابة، وهو في أسرة الأسود لا عمل له إلا النوم والتناوب، أما القنص والعراك وحماية الأسرة وتدبير غذائها فمن

واجبات اللبوة، وهى إذا هبرت فريسة أعطت الأشبال أولاً، وما تبقى فللزوج النائم الوخمان، وتبقى هى الرمز الأبدى للنفاء، أول من يصطاد وآخر من يأكل. وإذا أكل الأسد فهو آخر نوم وأحلى أحلام. وتستطيع أن تمر به وأنت آمن، وأن تلعب له بأصابعك فى فروة رأسه أو تزغره فى بطنه، فهو لن يتحرك ولن يتململ، وهو لن يصير خطراً إلا إذا جاع.

وفى قانون الغابة، أنك إذا أردت أن تصطاد أسداً، سمحوا لك بالدخول وحدك ما فيش مانع، مع آخرين زى بعضه، لأن أى مخلوق يحمل بندقية فى استطاعته أن يعود من الغابة وعلى كتفه جثة أبو السباع. أما إذا أردت أن تصطاد فيلاً، فهناك سيضعون لك ألف شرط وشرط. لأنه آه وألف آه إذا انطلقت الرصاصة نحو الفيل ولم تصب منه مقتلًا، عندئذ نهار الصيد أزرق، وليل الغابة كحلى، وستقوم القيامة على الجميع ولن تقعد أبداً. وليس فى الوجود أخطر من فيل يسيل منه الدم، سيتحول هذا الوديع إلى بركان تقذف منه الحمم تحرق ما حوله، فقد يخرج من الغابة ليهاجم القرى والمدن أيضاً، وسيحتاج الأمر عندئذ إلى كتيبة من الجيش لوقفه عند حده. لذلك فإدارة الغابة تشترط عليك أن تصطحب معك عشرة رجال مدربين على صيد الفيل وبأسلحة حديثة. وكاذب من يدعى أنه اصطاد فيلاً فى الغابة. صحيح أنه أطلق النار، ولكن الرصاصة القاتلة حتماً سيطلقها هؤلاء المدربون العشرة، ولكنهم يتركون للصيد أن يعود إلى المدينة حاملاً على كتفه سن الفيل. وماذا بهم، مادام يدفع الصيد تكاليف الرحلة وأجر الحراس، ويقدم الطعام والشراب أيضاً.

ولذلك سيبقى هواية صيد الفيلة وفقاً على السادة أصحاب الملايين؛ لأن صيد فيل واحد قد يكلف إقامة شهر داخل الغابة وعدة ألوف من الجنيهات. ولكن الفيل إذا لم تعترضه لا يعترضك، وهو ذوق ومؤدب ودمت للغابة. وهو إذا شعر بدنو الأجل سار مئات الأميال داخل الغابة ليعود إلى مسقط رأسه؛ لأنه ينبغي أن يلقى حتفه هناك. ولحمه يأكله سكان الغابة، ويقسمون لك أنه أذ من لحم الجاموس، ولكن أذ لحم فى الواقع وأعلى لحم أيضاً هو لحم القروء.

والصيادون إذا اصطادوا القروء، أرسلوا الشباب منها إلى حدائق الحيوانات، والعجائز باعوها للقردياتية يسرحون بها على المقاهى والحانات. أما النسانيس الصغار فهم تذبج وتعلق فى محل جزار، وهى أعلى اللحوم سعراً فى إفريقيا. وليس فى الغابة إلا المشاحنات والمشاجرات والافتراس. ولكن أخطر عراك هو الذى يدور بين الفيل وحيد القرن، إنه صراع الجبابرة، وهى معركة ليس فيها غالب ولا مغلوب، وفى الأغلب ينتصر الفيل، ولكنه حتماً يموت بعد المعركة بأيام وأحياناً بساعات.

ولكن المباراة الحقيقية هى بين الوحش والإنسان، وهى مباراة عامرة بالإثارة، غنية بالفن، والنصر فيها غالباً للإنسان؛ لأن العقل أقوى من العضلات، والذكاء فوق الأظافر والأنياب. وأى وحش فى الغابة يفر هارباً إذا رأى شيخ الإنسان. لا يهجم على الإنسان إلا من ذاق لحم البشر. ويقال - والعهد على الأكل - إن أذى لحم فى الوجود هو لحم الإنسان؛ والسبب أنك لا تستطيع أن تذوق اللحم، أى لحم بدون ملح، ولكن لحم البنى آدم لا يحتاج إلى ملح. إن ملحه منه فيه، على رأى الممثل سعيد صالح عبيط الفن العظيم. ولذلك إذا تذوق الوحش لحم البنى آدم، صار من أكلى لحوم البشر، وهو عندئذ سيعزف عن أكل لحوم الحيوانات، ويبقى كل همه أن يظفر بواحد من بنى آدم يفطر به ويحمد الله، وسيبقى بعد ذلك غريباً عن أهل الغابة، وهو سيهجر الغابة بعد ذلك، ويعيش على أطرافها، وستصبح القرى الأهلة بالسكان هى مجال عطه بعد ذلك. ولكن الحيوان لن يكتب له أن يعيش طويلاً، فسيلقى حتفه بيد الإنسان الذى عشقه كثيراً، وتمنى لو يفرس أسنانه فى لحمه ليل نهار.

وهناك خطر انقراض وحيد القرن والجاموس الوحشى: هنود حمر الغابة، كل غابة وفى كل مكان. وإذا كان الجاموس موجوداً بكثرة فى كل الغابات، فإن وحيد القرن لا وجود له الآن إلا فى غابات السودان؛ السبب هو الغباء، وأنت إذا هربت من وجه جاموسة وصعدت فوق شجرة، فإنها ستربض لك تحت الشجرة، لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، وتتموت الجاموسة حتماً، بينما يكون

الذى فوق الشجرة قد هبط منها خلسة واختفى فى زحام الغابة عن الأنظار، أما وحيد القرن، إذا وقع فى كمين داخل الغابة، فإنه لا يسعى إلى تخلص نفسه، لكنه سينتحر على الفور، وسيتكفل النمل الأبيض بلحمه، وتبقى عظامه مادة رئيسية لصنع السلاح.

حكايات الغابة ما أعجبها وما أغربها. حكايات تقشعر منها الأبدان. وسبحان مدبر الأكوان.

## على أيواء ياييل !

أنا وقفت على باب العراق سبع سنوات استجدي الدخول دون جدوى . كان نوري السعيد يحكم العراق ويتحكم فيه ، حتى خيل إلى أنني لن أدخل العراق في حياتي . وقبل الوحدة بين مصر وسوريا ، كان العبد لله في دمشق ، وكانت دمشق وقتئذ قلب العروبة النابض ، والتقيت هناك بعدد من السياسيين العراقيين ، أذكر منهم عزيز شريف والدكتور صفاء وعبد القادر إسماعيل وآخرين ، وقد حملوني رسالة إلى عبد الناصر . ولما كنت محرراً في جريدة الجمهورية وأنور السادات رئيساً للتحريض ، فقد سلمتها إلى السادات ليسلمها إلى عبد الناصر . وبعد أسبوع من تسليم الرسالة فصلوني من الجريدة . وبعد أسبوع آخر جرّجروني إلى سجن الواحات . ويعلم الله أنني لم أكن أعلم محتويات الرسالة ، ولم أقرأ حرفاً مما فيها على الإطلاق ، ولكن اكتشفت بعد سنتين من السجن أن الرسالة كانت تحمل إنذاراً إلى عبد الناصر ، بأنه إذا أقدم على حل الحزب الشيوعي في سوريا ، بعد الوحدة ، فإن الأحزاب

الشيوعية العربية ستكافح في المستقبل ، ولكن في طريق آخر غير طريق الوحدة والقومية .

وأغلب الظن أن الحزب الشيوعي العراقي اعتقد حسب مفاهيمه عن ( الانزواء الارتوازي والالتحام الشنكبرى ) أنني مندوب عبد الناصر في دمشق . وأغلب الظن أيضاً أن عبد الناصر بعد ما قرأ الرسالة ، اعتقد حسب تقارير الأجهزة أنني مندوب الحزب الشيوعي في العراق . وهكذا ضاع العبد لله بين سوء فهم الحزب الشيوعي العراقي وسوء تصرف أجهزة مصر . ويشهد الله أيضاً أن عمنا أكرم الحوراني كان الوحيد الذي اهتم بأمر العبد لله ، فسأل وزير داخلية مصر عن المصير الذي انتهت إليه ، وبعد عشرة أيام - هكذا حكى لي عمنا أكرم الحوراني - أنكر وزير الداخلية وقتئذ أن السجون المصرية تضم محمود السعدني أو واحداً بهذا الاسم .

وهكذا فإن الحزب الشيوعي العراقي مدين لي بعامين كاملين قضيتهما في سجن الواحات الخارجية . وأقول أيضاً إنني في غاية السرور لأن الوزير عامر عبد الله ذكرني بالدين ، وهو الذي ذكرني في بغداد أخيراً . وأنا أقول : المسموح كريم ، وما يصيب الريش بقشيش ! المهم بإسادة ياكرام أنني حاولت بعد خروجي من السجن أن أذهب إلى بغداد ، ولكنني لم أستطع الحصول على تأشيرة الخروج من القاهرة ، ولذلك صرفت النظر نهائياً ، وقلت لعلها حكمة أن أقضى العمر كله ولا أرى بغداد ، ولكن شاءت الظروف أن يسقط نظام عبد الكريم قاسم ، وأن أجد نفسي فجأة في شوارع بغداد .

والحق أقول : إن بغداد كانت بالنسبة لي كحل . عاصمة إمبراطورية العرب الثانية بعد دمشق ، مقر أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد ، وعاصمة السحابة التي تمطر حيث تشاء ، فسيأتي إليها خراجها .. أعظم عبارة قيلت عن إمبراطورية في كل الأزمان .

هنا في بغداد عاش أبو نواس ، يدعى الانحلال ويجهر بالدنيا لينجو من قبضة السلطة ويحظى بعطف السلطان . وهنا عاش المتنبي ، وأصيب بعقدة

اتجاهها استراتيجيا فى السياسة ، وكرس الإعدام عقوبة لكل وطنى أو شيوعى أو بعثى ، يرفع علم العروبة ، ويطالب بأن تكون بغداد قبلة للعروبة وليس مقرا أو ممرا للأحلاف . ولما اطلعت على بغداد فى ذلك الزمان وما فيها من غرائب وأصداد ، هتفت : « يارب احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفى لهم ! » .

والحق أقول إن معالم بغداد التى انطبعت فى نفسى عام ١٩٦٤ و عام ١٩٦٥ هى التى جعلتنى لحظة خروجى من مصر عام ١٩٧٤ لا أذهب إلى بغداد ، يمت غربا نحو لندن ، وعشت فى لندن تسعة أشهر متواصلة اتسكع فى شوارعها ، وارتاد نواديها ، وأقضى أغلب النهار فى مستشفياتها . فقد كانت حبيبة قلبى ( هالة ) طريحة الفراش ، لم تنته من إجراء العملية الجراحية بعد . ولأول مرة حقا فى حياتى أشعر بالضيق . اشتاقت نفسى إلى روائح بلادنا ، واشتاقت أذنانى إلى سماع الشيخ رفعت والشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، وبكى بالدمع لأنى لم أجد فى لندن رصيفا واحدا يتسع لمقعدين ، واحد ليه وواحد للعبد الفقير زكريا الحجاوى ! نجلس ونندردش ونسخر من أنفسنا ومن الناس . ولذلك قررت أن أهرج لندن . فأتجهت إلى بيروت ، ومن بيروت إلى الدوحة حيث كان عمنا زكريا الحجاوى يعيش هناك . وقد داخ السبع دوخات قبل أن يتوكل على الله ويموت . ومن الدوحة إلى أبو ظبى والكويت . رحلة عذاب متصلة مشيناها على الشوك أحيانا ، وعلى السيف أحيانا ، وعلى أبواب الله فى كل حين ! .

وأتاحت لنا الرحلة العجيبة اختبار أمة العرب على الطبيعة ، وخرجنا باكتشاف مهم ، وهو أنه لا عرب هناك ولا يحزنون ، وإنما نحن عرب فى الإذاعة وأعداء فى الواقع ، وأننا عرب باللسان وقلوبنا شتى ، وأن أى إنجليزى أو أى أمريكى أو أى هندى أو أى إيرانى ، له فى بلاد العرب السلام والضيافة ، وللعربى المهانة والمذلة والحظ التعيس ! .

ومن أجل سلاطة قلمنا وجارح كلماتنا ، طردنا من بلد عربى باللطافة ،

حياته حين حاول شراء عدد من البطيخ بدينار ، ويحملة المتنبى على كتفه ، ورفض البائع وباع البطيخ لآخر بنصف دينار ، ويحملة البائع على كتفه . ووقف المتنبى يتأمل البائع وقد خيل إليه أن فيه مس من الجنون ، ولكن البائع شرح الأمر للمتنبى وقال له مستهزئا : « هذا رجل يملك مائة ألف دينار » . حكمة ، أما الغنى فيعطى ويزاد ، وأما المتنبى فيؤخذ منه ! ولعل هذه الحادثة كانت السبب فى أن المتنبى حرص العمر كله بعد ذلك على أن يكون من أغنياء العصر ، ولعله مدح الجميع حتى لايرفض بائع بطيخ آخر أن يبيعه بدينار ماسمح لغيره بأن يشتريه بنصف هذا المبلغ ! .

ولكن ياميت حسرة على بغداد كما رأيته بعينى رأسى فى عام ١٩٦٥ . شوارع تشكو من قلة الزيت ، وأواق تشكو من قلة التنظيم ، وظلام وخمول ، ومدينة فيها من الخرائب أكثر مما فيها من منازل . وتعجبت كيف صرخ المأمون حين رأى مصر وقال متعجبا : « لعنة الله على فرعون ! طغى فقال : أليس لى ملك مصر ؟ » ، إذن ماذا يقول لو رأى ملك بغداد ؟ لابد أن بغداد كانت على زمن المأمون غيرها فى عام ١٩٦٥ .

وأغلب الظن أن بغداد دمرها المغول ثم العثمانيون ثم الحكم ( الوطنى السعيدى ) نسبة إلى نوري السعيد . حتى الطرب خلا منه بلد إسحق الموصلى وابنه ابراهيم . كان القبناجى قد اعتزل ونرجس شوقى هاجرت . ومات عندليب العراق ناظم الغزالي ، طيب الله ثراه . حتى الشعر أصيب بالسكنة فى بلد المتنبى وعلى الجهم ، هاجر عمنا الجواهرى واختفى بلند الحيدرى ، وانزوى عدنان الراوى يحتضر ، وغاب عبد الوهاب الببائى وعلى الحلوى وشفيق الكمالى عن الميدان . أين العراق إذن ؟! البلد الذى كان يسكنه أربعون مليون نسمة فى زمن العباسيين ، وكان حقل الحنطة لإمبراطورية العرب . ومن الذى ارتكب الجريمة ؟ فأفرغ العراق من سكانه ، وأفرغه من خيراته ، ويوشك أن يترك أنفاسه ولا يتركه إلا ميتا بلا حراك . إنه العهد الملكى السعيدى ، الذى اعتبر التمر مصدرا أساسيا للرزق ، واعتمد العمالة

ومن آخر بالتهديد ، ومن ثالث بالعنف ! وهكذا وجدت نفسى أخيرا فى بغداد . وبعد عام من إقامتى فى بغداد ، سألتنى عربى من إياهم وكان يجلس معى فى فندق دار السلام عن الفرق بين بغداد وعواصم عربية أخرى ؟ فقلت للأخ العربى إياه المتبلطن بالفرو ، والمتدفء بأوراق النقد : « بالنسبة إلى شىء واحد فى بغداد أفضل منه فى أى مكان آخر ، وهو أننى فى بغداد أعيش وأشعر وأعامل كمواطن عراقى » ، وكانت هذه حقيقة لاتقبل الجدل . فأنا على طول مالفت ، وعلى طول مانطيت ، لم أشعر منذ غادرت مصر ، وفى أى بلد عشت فيه وسكنت ، أننى مواطن ، إلا فى بغداد .

ولم تكن المعاملة مقصورة على العبد لله باعتبارى من المشتغلين بالكتابة والسياسة ، أو لأننى كنت شهيرا فى بلادى يوما ما . ولكن هذه هى المعاملة التى يلقاها كل عربى فى بغداد . مرحبا بالجميع ماداموا عربا . لهم ماللعراقيين من حقوق ، وعليهم ماعلى العراقيين من واجبات . شهادة حق على أن الشعار المرفوع ( وطن واحد ) ليس للتجارة وليس للاستهلاك المحلى أو العربى ، ولكنه شعار وجد للتطبيق ، وأنه إيمان لدى كل فرد فى الحزب الحاكم ، من أحمد حسن البكر إلى آخر عضو فى الخلية الحزبية فى الأهوار . ويكفى أن تكون عربيا حقا لكى تجد مكانا لك فى بغداد . الجواسيس فقط والخونة هم الممنوعون من الإقامة . ولذلك ستجد الجميع هناك فى أول تجربة من نوعها فى الوطن العربى : الشيوعى والبعثى والناصرى والليبرالى والوطنى الذى يقاتل ضد المصالح الأجنبية والاستعمار . ولو نجحت التجربة - واعتقد أنها ستنتج - ستمهد الطريق لصياغة علمانية جديدة فى الوطن العربى ( التجربة فشلت للأسف الشديد ) .

وإذا كانت هذه هى بغداد السياسة ، فبغداد الشارع آخر حلاوة وآخر جمال . والعراقى العادى طيب ، فيه من المصرى ثقته الشديدة فى كل من يلقاه ، وهدم الحواجز بينه وبين كل من يلقاه من الناس . وإذا كان المصرى على استعداد للموت فى سبيل صديقه الذى لم يتعرف عليه إلا منذ بضع ساعات ، فإن

العراقى يمكن أن يدخل معركة الهول من أجلك ، خصوصا إذا كنت عربيا وغريبا فى بغداد . وإذا كان العراق مع لىبى فى ليبيا ، سينتهى بموت الغريب ، فالعراك فى العراق مع عراقى ، سينتهى بموت العراقى . لأن العراقيين الذين سيوجدون لحظة العراق ، سيقفون لامحالة إلى جانب الغريب . وإذا عشت فى العراق فستنسئ بلادك وستنسئ أصدقاءك ، لأن كل العراق سيصير بلدك وكل العراقيين سيصبحون أصدقاءك . عندما سكنت دارى أول يوم فى ( المنصور ) ، انهالت علينا الأطعمة من البيوت المجاورة ؛ لأنه هكذا يعامل السكان الجدد فى العراق .

والعراقى العادى بسيط للغاية ، يضحك من الأعماق ، ويبكى من الأعماق ، ويسيل رقة ، ويهتز غضبا . لذلك أحذرك من العراقى إذا غضب . ولا يغضب العراقى إلا لكرامته ، وما عداها فكل شىء يهون . وإذا كنت قد حرصت على أن أكرر كلمة العراقى ( العادى ) ، فأنا أقصدها ؛ لأن هناك عراقيا آخر هو صنف الموظفين فى دوائر الحكومة القديمة ، فى الجمارك والجوازات والتربية والتعليم . هناك حيث اللوائح التى وضعها السلطان عبد الحميد والنصوص التى وضعت لإرضاء السلطان رشاد ، ستجد صنفا آخر من العراقيين ، ولذلك إذا أردت أن ترى وجه العراق المشرق ، فلا تذهب إلى الجمارك ، لأنك ستدوخ دوخة الأرملة ، وستبكى بكاء الخنساء ، وستذهب قصتك فى الأجيال ولا قصة النبى أيوب ! ولما اطلعت على سلوك رجال الجمارك ، هتفت : « يارب يا حفيظ ، نجنا من هذا السلوك المغيظ ! » .

والحق أقول إن الهيكل الوظيفى ورثته ثورة العراق من عهود سابقة . ولأن البشر لايتغيرون بسهولة ولا بالسرعة المنشودة ، فأغلب الظن أن الأمل سيكون فى الأجيال الجديدة . وأنا أقول الآن بعدما عشت فى العراق عامين : إن العراق سيتحول تحولا جذريا إلى الأفضل والأرفع لو ساد فيه هذا الاستقرار الذى يشهده الآن ، وهذا لم يحدث فى تاريخه الحديث من قبل . نعم ، تحتاج بغداد إلى عشرين عاما على الأقل لكى تصبح شيئا مختلفا عما كانت عليه من

قبل . شيء باهر وجميل . لأنه في السنوات العشر الأخيرة تحولت بغداد مثلا إلى حديقة كبيرة . وتستطيع أن تقيم الآن في بغداد وأنت آمن حتى ولو كانت أبواب دارك مفتوحة .

وأقول أيضا وأنا أمسك الخشب : إن مشكلة المشاكل في العالم - التضخم - لم تدق أبواب العراق بعد . صحيح السيولة متوافرة وموجودة ، ولكن البضائع أيضا متوافرة وموجودة . ولعل العراق هو البلد العربي الوحيد بعد ليبيا في رخص الأسعار . وتستطيع لو كنت في بغداد ، وإذا كنت أعمى مثل حالي ، أن تصنع نظارة طبية في محلات القطاع العام بثلاثة دنانير ، وثمانين في لندن مائة جنيه بالتمام والكمال . وكيلو التفاح بعشرين قرشا ، وكيلو الخيار في الصيف بدرهم ، وكيلو اللحم بدينار . ولكن الذي يحتاج إلى وقفة طويلة هو عملية الاستهلاك . إذا نزلت أي كمية من التفاح إلى الأسواق ، اختفت في ظرف ساعة ، وإذا عرضت محلات ( أروزدي باك ) أي شيء ، اختفى هذا الشيء تماما في ساعة . وهناك موضة جديدة في بغداد اسمها ( المجددة ) ، وأنت لا تملك مجدة ، فأنت لست عراقيا ، مع أنها بلاد زراعية ، والأشياء متوافرة فيها على مدار السنة ، وكل شيء حاضر وموجود ويمكن زراعته حتى في الحدائق . والعراقي يشتري دون رغبة في الشراء ، ويشتري لأن الفلوس حاضرة والشيء موجود .

ومائدة العراقي دسمة ، وهو أيضا كريم ، وستجد عليها كل أنواع الطيور واللحوم والأسماك ، ولكن عدوى الوحيد في العراق هو ( الكبة ) . والكبة هي الطعام الوطني في العراق . والعبد لله وإن كان عراقيا بالمزاج ، إلا أنه لست عراقيا بالمعدة . وأجمل شيء في بغداد هو المطاعم الصغيرة المنتشرة على عربات اليد في شوارع المدينة ، وأجمل منها زبائننا الذين يترددون عليها كل يوم . وستجد من بينهم شعراء وأدباء وفنانين ، لهم في دنيا الفن صيت ، ورجال أعمال ورجال طريق ، ولا أحد منهم يستنكف الوقوف على الرصيف ليتناول طعام العشاء . عندما نزلت بغداد أول مرة ، قادني عبد الرحمن الخميس إلى مطعم صغير في ( الكرادة ) ، وهتفت وأنا التهم الطعام كالغول : « يامرحبا

بغداد » . ولكن على بلوط قادني في مرة أخرى إلى مطعم آخر ، وجعلني أبكي على العمر الذي انقضى قبل أن أمضي إلى هذا اللحم . أغرب شيء أن الولد الذي يشوى اللحم قال لي ذات مرة : لقد عرفت الرجل الذي كان معك . إنه على بلوط رئيس تحرير ( الدستور ) . لقد رأيت صورته في إحدى المجلات ، ولم أكن أعرف أنه هو الشخص الذي اعتاد أن يأتي إلى هنا كلما جاء لزيارة بغداد . ومرة أخرى ضحك الولد وهو يقف خلف النار ، وقال وهو يغمز بعينه : أنت محمود السعدني . أنا رأيت صورتك وقرأت لك في ( ألف باء ) .

وهذه الحادثة تقودنا إلى ظاهرة عجيبة في بغداد ، وهي أن العراقيين مدمنون على القراءة ، وهم على معرفة بكل إنتاج الأدب العربي ، حتى هؤلاء الذين نستخف أحيانا بشأنهم ، أو نقلل من قيمة إنتاجهم . والعراقي أيضا قارئ حساس جدا وغضوب جدا . فقد انهالت على العبد لله مرة عشرات الخطابات تعاتبني كلها على عبارة ( العالم العربي ) التي وردت لي في مجلة ( ألف باء ) : كيف تقول ( العالم العربي ) إذا كنت بالفعل تؤمن بالوحدة ؟ إن ( العالم العربي ) عبارة مبهمّة كعبارة ( العالم الغربي ) . وعندما نقول عبارة ( العالم الغربي ) فهي تشمل شعوبا مختلفة وأمم شتى ، ولكن قد يجمع بينهم رباط واحد ، وهو أنهم جميعا من العالم الغربي ، ولكن العرب شيء آخر مختلف . وبلاد العرب اسمها ( الوطن العربي ) . لأنها بالفعل بلد واحد مزقه أعداء للعرب لأمر في نفس يعقوب . وبعض الناس العاديين في العراق يحتفظون بكل أعداد ( صباح الخير ) في الخمسينيات والستينيات ، وبعضهم يحتفظ بأعداد ( روزاليوسف ) منذ أن ظهرت . والعجائز منهم يذكرون بالخير عمنا الدكتور زكي مبارك ، الذي عاش فترة طويلة في بغداد ، وتعلق قلبه ببلبي المريضة بالعراق . والحق أقول إنه كان للدكتور زكي مبارك فضل على أبناء جبلي ، لأنه عرفنا بالعراق ، وجعلنا نعيش فترة صبانا المبكر في أجواء بلد علاء الدين والسندباد .

وإذا كنت تريد حقا معرفة العراق والغوص في أعماقه ، فإذهب إلى ( الشواكة ) و ( علاوى الحلة ) و ( الشيخ معروف ) . انك هناك ستكتشف

العراق الحقيقي ، وستتعرف على أعماق العراق . ولست أدري لماذا تذكرني تلك الأماكن بمصر أيام زمان . مصر الحلوة الطيبة السخية ، ومصر القديمة قبل أن يمسح وجهها أبطال الانفتاح ، وشوهوا روحها قرود الطبقة الجديدة . وستجد في الشوكة وعلاوى الحلة نماذج من أبناء البلد الطيبين . واحد منهم تعرف على ، وكان يعرف بطبيعته الأصيلة أنني هارب ولاجئ من مافيا الانفتاح . وأقسم الرجل ألف يمين ألا أبرح مكاني قبل أن نأكل معا عيشا وملحا . وكانت أكلته ( مسجوف ) أكلناها على رصيف الشارع في الشوكة .

ولكن ماذا عن ليلي المريضة في العراق ؟ وماذا جرى لها بعد عمنا الدكتور زكي مبارك ؟ هل مازالت مريضة ؟ أم أنها نهضت من فراش المرض بالسلامة وأصبحت آخر صحة وآخر جمال ؟ أنا شخصيا لما اطلعت على أحوالها هتفت : « يا عالم الواردة والشاردة ، احفظها من كل عين باردة » ! .

## أوطان الآخريين !

وإذا كنت قد عشت في العراق ست سنوات، فالحق أقول إن هذه السنوات الست قد حفرت في نفسي علامات، وتركت في نفسي ندوب. وبالرغم من ذلك، فأنا مدين بالفضل لبغداد. فقد علمت أولادي، وتخرجوا في جامعاتها، ووفرت لأسرتي الاستقرار الذي كانت تنشده، وأيضاً عرفتني بغداد بشخصيات عربية لم تتح لي الظروف من قبل أن اتعرف عليها. وعلى رأس هؤلاء عمنا أمين الحافظ رئيس سوريا الأسبق، الذي دافع عن بيته عندما هاجمته قوات الانقلاب، بشكل أفضل مما دافع به البعض عن هضبة الجولان. وصديق آخر تعرفت عليه هو أخونا الدكتور عارف الكيالي، وهو عربي سوري ونموذج من الرجال أتمنى أن أرى مثله صورة العربي في كل مكان.

أما عبد الفتاح الزلط، الذي تعرفت عليه يوماً ما في حلب، وكنا وقتئذ في عنفوان الشباب، وكنا نحلم معاً بوطن عربي واحد وجيش عربي واحد،

ومجتمع عربي واحد يضح بالحرية والنضال والحياة. أخونا المناضل عبد الفتاح الزلط الذي التقيت به أخيراً في بغداد، أنكرنى وأنكرته. لقد تغير كما تغيرت، وترك الزمان بصماته على وجه كل منا، وترك أثره على شعره فصار في لون القطن، ولم يترك على شعري أثراً، لأنه لم يجد على فروة رأسي أى شعر! شيء واحد فقط جمعنا واتفقنا عليه، وهو الازدراء الكامل لما صارت عليه الحال في الوطن العربي، والتشاؤم بالنسبة للمستقبل، والبكاء على أيام مضت، كنا نبكي فيها على ما نظن أنه اعوجاج، فصار انحرافاً، تلك الأيام غاية الاستقامة بالنسبة لما يحدث الآن في عواصم العرب الكبرى. ضاقت بنا السبل، وضاقت بنا الحيل، ولم يعد أحد يدرى من أين؟ أو إلى أين؟.

أما رجال السياسة في العراق، فقد جعلنى بعضهم أشعر بأن العالم جميل والدنيا بخير. نعيم حداد عضو مجلس قيادة الثورة، وشجرة الجميز الطيبة التى أظلمتني في لحظات الهجير القاسية. ومنيف الرزاز الذى كان أقرب المسؤولين إلى نفسى وعقلى. وشفيق الكمالى رئيس اتحاد الأدباء، الذى ترجع صداقتى به إلى أيام قهوة محمد عبد الله بميدان الجيزة، والذى كان كالبلسم لجراحي، التى أحدثها في جسمى وفى نفسى عشرات من الأرزقية الذين يشتغلون بالسياسة في بغداد. والشاعر حميد سعيد ابن (ريف الحلة) صاحب النفس الصافية والضمير الحى، والذى كان ملاذى في اللحظات التى أشرفت فيها على قتل نفسى. ونصيف عواد السياسى الفذ صاحب الأفق الواسع والنظرة المستقبلية، العروبي الحقيقى، الذى يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأن بعث أمة العرب لا يتحقق، إلا بأن يكون كل عربي حراً. والصحفى أمير الحلوى، الذى كان أول وجه التقيت به في العراق، وكان نعم المدخل إلى بلد الرشيد والمأمون وأبى تمام. والمقدم أرشد ياور صدام حسين، الرجل الذى كان أشبه بفارس من فرسان العرب في صدر الإسلام، آخر شهامة وكرم واستبسال.

وفى المقابل، كان هناك عشرات من الوحوش الكاسرة، تصوروا في لحظة جنون وغرور أن اللاجئين السياسيين هم أسرى وقعوا في أيديهم. وتصوروا

في لحظة طيش أنهم قادرون على إخضاع الجميع بإغرائهم، وبمحاولة تقزيمهم. على رأس هؤلاء، رجل مسئول، حجمه وشكله لا يرشحانه إلا لمنصب صبي في قهوة أو دلال في سوق. كان وجهه يشبه إلى حد كبير وجه ممثل كوميدى عربي مشهور، وكان هذا الشبه هو عقدة حياته. وكان يتصور أنه فيلسوف هذه الأمة ومبعوث العناية الإلهية لبعث هذه الأمة من رقادها الطويل. والحقيقة أنه كان أجهل من دابة، وكان الفشل هو رفيق دربه على طول الخط. اشتغل صحفياً فلم يحقق شيئاً. واشتغل كاتباً يكتب مقالات من نوع (الحنجورى المتهاك في الشنجورى) فلم يقرأها أحد إلا أهل بيته، وبعض المنافقين من بطانته. واشتغل وزيراً فجعل من وزارته أضحوكة للجميع. هذا المسخ المشوه تصور أنه قادر على تنصيب نفسه أستاذاً للمثقفين والكتاب المصريين الذين لجأوا إلى العراق! ولقد نجح في إخضاع البعض بفلوسه. وجن جنونه عندما قاومه البعض الآخر، فسلط زبانيته عليه، وانكشف من خلال سلوكه السلطوى، فإذا به لا يؤمن بشيء مما يردده، وإنما هو مجرد مستبد صغير، سيذهب في النهاية إلى زبالة التاريخ.

وغير هذا الدعى، كان هناك عشرات من الخنافس الصغيرة، تصوروا في لحظة جنون أن القومية هي أن يتولوا قيادة القوم. وتوهموا أن العروبة هي أن تركب في عربتهم. واعتقدوا أن الاشتراكية هي أن تشترك معهم في كتابة التقارير. خنافس حقيرة وعناكب سامة لها أسماء: (جبار) و(الدهش) و(باصى) و(أبو سعد).. وآخرون. والمؤسف حقاً أنه يوجد لهذه الخنافس شبيه في كل أجزاء الوطن العربى، فهناك جبار وباصى والدهش في دمشق وفى طرابلس الغرب وفى تونس وفى الجزائر وفى عدن، وحتى فى القاهرة. والمؤسف أيضاً أن مصريين كثيرين مشوا فى ركابهم، وركبوا فى عربتهم، واشتركوا معهم فى تحرير التقارير، وأصبحوا من مليونيرات العصر وسكنوا لندن وروما وباريس! على رأس هؤلاء زعيم حزب الكهرباء، الذى أسس لحساب هؤلاء حزباً كهربائياً، ضم زوجته وخادمته ومهندساً كهربائياً فى حجم التيس، وولد أرزقى خرج من مصر بلا سبب، ولم يكن مطلوباً من السلطة



ولا مطارداً من البوليس.. خرج قاصداً بلاد العرب لهدف واحد ووحيد، هو الحصول على الفلوس بأى طريقة ومن أى طريق، وانهمك فى كتابة التقارير وتجنيد المصريين الذين يقصدون العراق من أجل لقمة العيش. وكان هؤلاء هم أعمدة الحزب.

وكانت مهمة حزب الكهرباء فى الحقيقة، هى اصطلياد الشباب المصرى وتهيته وإعداده وتسليمه لجبار، ثم بعد ذلك لا أحد يعلم ما الذى يجرى لهم أو يجرى عليهم. ولكن الأكيد أن هؤلاء الشباب ضاعوا جميعاً بسبب المسافة البعيدة بين الشعارات والتطبيق، وبين الحلم والحقيقة. وبينما ضاع هؤلاء الشبان الصغار، أصبح رئيس حزب الكهرباء مليونيراً يشار إليه بالشيكاكات، وتحول الكهربائى وكيل الحزب إلى مليونير يشار إليه بالدولارات، أما الأرزقى إياه، فقد هبر هبرته وعاد إلى مسقط رأسه، ويتصرف الآن كواحد من ملوك الانفتاح!

أيام مضت وأرجو ألا تعود، ليس بالنسبة للعبد لله فقط، ولكن بالنسبة إلى كل صاحب رأى، أو صاحب قضية، أو صاحب وجهة نظر. وإذا كنا قد فضحنا هؤلاء الخنافس وحفنة الأرزقية الذين خضعوا لهم مقابل أكياس الدنانير، فالأمانة تقتضينا أن نذكر بالخير الرجل العراقى الأول صدام حسين. والحق أقول إنه أنقذنى من براثن هؤلاء، وحمانى من بطشهم. ولقد حرصنى مرة على أن أقاوم هؤلاء بعنف، وأن أقف أمامهم بقوة، وقال قولاً ماثوراً ما زلت أتذكره وسأظل أذكره حتى آخر يوم من أيام العمر. قال: «ما عليك يا محمود من هؤلاء، فهؤلاء الصغار موجودون فى كل مكان على الأرض العربية، وعلينا أن نقاومهم فى كل مكان، لكى نشق الطريق إلى المستقبل الذى نحلم به للأمة العربية».

والحق أقول، كان صدام ودوداً وعطوفاً، وكان يشعر بأنه مسئول عن كل من لجأ إلى العراق فى ظله. ولكن.. كم من هؤلاء استطاعوا الوصول إليه؟ ولقد كان العبد لله حسن الحظ، لأننى استطعت اختراق دفاعات هذه الخنافس،

واستطعت المرور من بين خنادقهم، وتمكنت فى النهاية من الوصول إليه. وبالرغم من ذلك لم تتوقف الحرب. أصدر صدام ذات مرة أمره بإعداد مسكن لائق للعبد لله بعد أن قضيت خمسة أعوام أسكن فى بيت شبه مهجور، وبينام أفراد أسرته على الأرض. ومع ذلك مرت خمسة أشهر ولم ينفذوا أمر الرجل. وعندما حملت متاعى وأوشكت على مغادرة العراق، نصحنى أحد الإخوة العراقيين ألا اتسرع وأن اتصل بصدام أولاً. وتطوع الصديق العراقى وأبلغه بالأمر، وثار الرجل ثورة عارمة واستدعانى فى اليوم التالى، وفى اليوم الثالث كان كل شيء قد تم. ولم يقدر للعبد لله الحياة فى البيت الجديد إلا شهرين. فقد اضطرت إلى ترك العراق هارباً مصطحباً ابنى الوحيد معى، تاركاً أسرته وحدها فى بغداد. والسبب أنهم بعد انتقالى إلى المنزل الجديد، تصوروا أننى انتصرت عليهم، فقرروا الانتقام. وبدأ الضغط يشتد، وعندما أحكموا الحصار، قررت أن أغادر العراق. وفاتحت الدكتور يحيى الجمل الذى كان فى زيارة خاطفة لبغداد فى الأمر، وأقرنى على ذلك، ثم أبلغت الأستاذ محمد صبرى مبدى أيضاً.

وعشت عشرة أشهر خارج العراق، متنقلاً بين لندن ودولة الإمارات. وكانت فترة من العذاب المتصل والأرق المستمر. فأنا فى الإمارات وأسرتى فى بغداد، ووطنى بينى وبينه حواجز دونها حواجز، وأهوال دونها أهوال. وفى النهاية تدخلت السماء لتضع حداً لآلامى وضياعى. وتولى حسنى مبارك أمر مصر، وكان لابد أن أعود. وعدت ولكن عن طريق بغداد. وكان لقائى مع صدام حسين قبل الرحيل هو مسك الختام. أما العناكب والخنافس، فقد دخلوا الشقوق بعد أن تأكدوا بأننى عائد إلى القاهرة.

وإذا كان لابد من كلمة تقال لشباب اليوم، فكلمتى لكم: احذروا مغادرة الأوطان، وتجنبوا اللجوء إلى أوطان الآخرين مهما كانت الشعارات براقية والكلام معسول. لأنك يا ولدى لن تستطيع ولن يسمح لك بأن تلعب سياسة على أرض الآخرين. وإذا لعبت فسيكون لحسابهم ولمصلحتهم، ولن تكون أكثر من

كاتب تقارير أو مخبر نشيط، أو فى أفضل الأحوال عضواً فى حزب  
الكهرباء، تكتب التقارير وتجند الأفراد لحسابهم مقابل أكياس الدنانير!.

وتسألنى الآن يا ولدى: وما الحل؟ إذا تورط الإنسان فى عمل سياسى داخل  
بلده، وفى غياب الديموقراطية، وفى ظل نظام يعتمد البطش والقمع والتقتيل؟  
وجوابى هو كما قلت لك: تقدم إلى السجن فى بلدك، أو تعلق بحبال المشنقة فى  
مسقط رأسك. هذا أفضل وأشرف مما سوف تلاقىه فى بلاد الآخرين. وآه من  
الضياع وخيبة الأمل فى بلاد الآخرين!!.

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٨ / ٣٥٧٧

ابن عطوطة !

ولكن عمنا ابن بطوطة كان اسمه هو عيبه ، فبطوطة من  
البط ، والبط طائر لا يطير ! شديد الكسل شديد الوحش ، غاية  
رحلته نفة في بحيرة ، أو نزهة في بركة ، أو بلبطة في ترعة  
حسب الأحوال والتساهيل .

ولذلك أطلقت على نفسي لقب ابن عطوطة على وزن ابن  
بطوطة باعتبار أن كلامنا له رحلات وجولات وسفريات على  
اختلاف المكان والزمان .

أنا إذن ابن عطوطة ، وهي من العط ، والأتسان يعط حتى  
يزهق ، وأحيانا حتى يغمر عليه .

محمود السعدني

# Mico Mark